استحالت طيفاً

نوال فاروق

استحالت طيفاً

نوال فاروق

الكتاب : استحالت طيفاً

الكاتب : نوال فاروق

تدقيق لغوي : آيات اسماعيل

تنسيق و إخراج : هدى الشيخلي

تصميم الغلاف : يقين الوائلي

استحالت طيفاً

قصص قصيرة

بوادر قلم

الإهداء

إلى من قرأ قصصي قبل أي أحد
إلى من جعل "الكتابة" حروفاً ترادف "قلبي"
لسنوات إلى من تغيرت أنا وما أكتب بسبب
كلماته
لكل شخص في حياتي يرى إهدائي إليه
شكراً لك

نوال فاروق

المقدمة

صدفة بحتة جعلتني أكتب ولو أنني أقصّ هنا كيف ومتى وأين ، لبدا للبعض أن لا علاقة تربط بيني وبين الكتابة ! وللحق ، سيكون مصيباً . أول قصة كانت مخجلة ورغم سعادتي بها كأول نص أكتبه ، إلا أنها من النصوص التي ستبقى داخلي فقط وداخل من قرأها وقتها .. لا غير !

لا مقدمة لدي حول ما هو آتٍ في الصفحات القادمة فكل قصة هي مقدمة لي ولنفسها .

قراءة ممتعة و-بقدر ما آمل – مفيدة أيضاً .

أوريغامي الأعوام التسعة

من ينظر إلى هذه الطفلة يكاد يجزم أن لها خبرة تمتد عدة قرون لتصل إلى القرن السابع عشر حيث كانت بداية فنيّ الأوريغامي والكيريغامي ، طي الورق وقصه على التوالي في الأوريغامي لا يمكنك إلا أن تشكل مجموعة محدودة من الأشكال حيث يحرم عليك قص الورقة أو إضافة شيء عليها على عكس الكيريغامي إذ أن القص واللصق مسموح لتتسع دائرة التشكيل الورقي متعدية بذلك الحيوانات والنباتات والأشكال الهندسية الأساسية واصلة إلى التشكيلات المبهرة لهذه الطفلة فنّها المفضل هو الأول دائماً ولطالما أثارت دهشة الجميع فهي تصنع أي شكل تريده بمهارة فائقة ، ثم تلجأ إلى الفن الثاني إذا ما أصاب الورقة خلل ما ويمكن القول أن هذا الشيء نادر الحصول , كانت زنبق جالسة على الدرجة الثانية من سلم منزلها ترتب الأوراق الملّونة ثم تختار اللون الذي ستبدأ به

لا أعلم لماذا تكرر هذه الطقوس كل يوم ، فهي دوماً تختار اللون البني كونه اللون المفضل ، قامت بتشكيل رجل يحمل في يده اليسرى اسطوانة صغيرة الحجم ويده اليمنى يلّوح بها عالياً تعمدت كذلك أن تقوم بعمل شق صغير جداً في الوجه ليمثل الثغر الباسم لرجلنا الصغير ذو الخمسة سنتيمترات أو حتى أقل

- كنت ترتدي سترتك الرسمية البنية اللون همست بصوتها البريء :

"أحبها لأنها تماثل لون عينيكِ يا زنبق"

- هذا ما كنت تردده لي كلما ارتديتها وجئت لتقبلني قبل خروجك للعمل . وضعت الرجل الباسم على درجة السلم بجوارها وأخذت تتأمله بصمت ، أؤكد أنها تغوص في بحر ذكرياتها

لا تملك طفلة بعمر تسع سنوات شريط ذكريات طويلاً ، لكن بحكم كونها تجعل من نفسها كبيرة لذا وجب القول أن الحدث الذي جرى قبل سنتين يبدو لها بعيداً جداً أظنه كان فصل الشتاء ولهذا الظن تفسير قد تفطنون إليه كان يوماً هادئاً بنهارٍ يخلو للعجب ربما من ضجيج الأطفال وكان بيت العم محمد سيخلو كذلك من ضجيج طفلتهم زنبق لولا أنها مصابة بحمى متوسطة الشدة تتحجج بها لتتغيب عن المدرسة محتفظة بهذا بطاقة عجيبة تملأ بها البيت حياةً تجاوزت الساعة منتصف النهار وحان وقت عودة آدم من عمله ، أسرعت إلى المطبخ تنتظر من والدتها أن تناولها كوب شراب القرفة الساخن الذي يحبه شقيقها كثيراً كم تحب أن تستقبله على عتبة الباب لتعطيه الكوب ثم تركز كل حواسها لتسمع صوت ارتشافه للشراب

تتخيل بعقلها الطفولي أن قلبه محاط بطبقة خفيفة من الثلج الذي تسمع صوته يتألم وهو يذوب . صوت قفل الباب يتحرك , لقد عاد ! أسرعت بخطاها الصغيرة لتستقبله مع كوبه الدافئ , أنظري ماذا أحضرت لكِ صغيرتي ! اليوم استلمت راتبي الأول وخطر لي أنكِ ستحبين ما اشتريته ..!

تناول منها الكوب وناولها تلك الاسطوانة الزرقاء التي ما عرفت محتواها إلا أن مجرد تملكها لشيء من راتب أخيها الأول جعلها تقفز فرحاً في أرجاء غرفة المعيشة بدا فيما بعد أنها اسطوانة تحتوي قطعاً من الحلوى الملونة وكل لون يعبر عن الطعم ، تذاب في الحليب الساخن ليصبح ألذ ويستمتع به الأطفال كم كانت هدية رائعة ، ولا أعرف هل يناسب القول هنا أنها أثلجت قلب زنبق أم

الأمر يحتاج للعكس ؟ أن تأخذ ذلك الحيّز الكبير من حياته وقلبه , ومرتبه حقاً شيء يسعد فتاةً بعمرها ليس لأنها أخته الوحيدة وحسب بل لأنه هو .. آدم ، أخذت ورقة أخرى بنيةً وشكلت بها رجلها الصغير

كان رجل الأوريغامي يحظى برفقة من فتاة ورقيةٍ حمراء وضعتها بجانبه على السلم . كانا يسيران معاً والابتسامة المجهرية ظهرت على كليهما هذه المرّة

لا يمكن نسيان هذا اليوم ، اليوم الأول في المدرسة الجديدة كان يعتريها الخجل والتصميم في الوقت ذاته لقد اطلّعت باهتمام بالغ على تعليمات المدرسة وشريط العنق الأحمر المطلوب وضعه كل يوم

_ هل أنتِ واثقة من هذا يا أميرتي ؟

ما تزال شريطتكِ في الخزانة

-لا لا هذا أجمل

لفّه بشكل أنيق وسيفي بالغرض

أطلق ضحكة خافتة وهو يلف لها ربطة عنقه الحمراء القانية .. هذه الفتاة متيمة بشقيقها للنخاع تشعر بالخزي لمجرد تفكيرها بارتداء شيء أحمر غير ربطة عنقه الجميلة

-ما حاجتي لشيء سترتديه كل الفتيات ؟

لدي هذا من هذا

أشارت للربطة ثم لأخيها الذي يكبت ضحكته بصعوبة

-انتهيت .. هيا لأوصلكِ

-أجل ، فلتكن حصني الحصين كي لا تجرؤ واحدة على السخرية مني ، ولا حتى المعلمة

أجابها بنبرة ساخرة ممازحاً : كوني ممتنة أني بذاتي لم أسخر منكِ

توقعي كل شيء اليوم على هذه المجازفة الغريبة كان يوماً رائعاً ، كان سنداً رائعاً ، وروح تمنت ألّا تفارقها أبداً
تنهدت بعمق وهي تمسك الورقة البنيّة الثالثة
يجدر بنا أن نسميها ورقة آدم الثالثة بتجريدها من لونها وتمليكها لاسم صاحبها الشرعي هنا على منوالها هذا لسنوات تسع أخرى تضاف لعمرها البرعمي
تضيف كل فترة تشكيلاً لذكرى تعلم أنها ستعلق بذاكرتها طويلاً .. طويلاً جداً !
تكرر كل الأشكال القديمة وتضيف لها الجديد فالجديد .. إلى مرحلة ما ! السيد البني كان عابس الوجه هذه المرّة و الفتاة الحمراء كذلك كلاهما ينظر لبعض بحنق وغضب .
محاولة الكره الأولى والأخيرة .. والفاشلة
بالطبع لم تكن محاولة كره متعمدة لكنها فقط لم تجرِ لنهايتها المظلمة
- رحلة مدرسية إلى حدائق الجبال ؟
حتماً لا !
-لكن أبي وأمي وافقا على ذلك ، وأطلب منك أن توافق أنت أيضاً
- زنبق .. نطقها بصوت غليظ وضاغطاً على كل حرف بقوة
-لا رحلة مدرسية وانتهى الأمر لم تتمالك نفسها أكثر انفجرت باكيةً وهي تشهق مع كل ما تقوله : أنت سيء سيء ! هذه رحلتي الأولى وكل صديقاتي سيذهبن أنت الوحيد الذي لم يقبل ، كل إخوتهن لا يعترضون على شيء لقد ظنّت أن دموعها قد تحرك قلبه ويوافق على مضض ، لكن لا جدوى ! إنه حب التسلط الموجود في جينات الإخوة ويا لحظها أن يكون هذا الجين في شقيقها تحديداً ! بالطبع لم يحصل شيء من طرف الأهل فالأخوة هم من يحصلون على النصيب الأكبر من احترام الرأي إن قال لا ،

فهي قطعاً لا وياله من شيء بغيض أن يخبرها أنه ذاهب في رحلة ترفيهية مع رفاق عمله إلى حديقة الحيوان في نفس يوم رحلتها المرفوضة

- ماذا كنتِ تتوقعين ؟

نفس دلال الطفولة يمتد لكِ في مراهقتكِ أيضاً ! هه خسئتِ سوف تبدأ مرحلة الحرمان من كل شيء جميل وأنا التي كنت أظن أخي مختلفاً

- بشكل ساحر

- عن الجميع كانت تتحدث مع نفسها طوال النهار وأي نهار ؟ أكثر الأيام مللاً وهدوءاً وفراغاً على الإطلاق لا يجب علينا أن نجعل الكره والظلم يستمران أكيد إذ لم توشك الشمس على المغيب حتى وردها اتصال من صديقتها مروة تخبرها بالكارثة التي حلّت ، ولا أدري هل أبالغ بوصفي أم أنها فقط (إزعاج) حدث نبالغ إن وصفناه بالكارثة ؟ انشغال المعلمات جعل بعض الشباب يقتربون ويقذفون بكلام الشوارع البذيء على هذه وتلك بلا تحديد من طالبات المدرسة واحدة منهن كانت معروفة بلسانها السليط وردودها اللاذعة حتى داخل صفّها

- لم تستطع السكوت وردت عليهِ بعبارات أزعجته جداً وغادر ، بدا أن الأمر انتهى لكن ما هي سوى دقائق قليلة حتى عاد بدراجته مسرعاً ليقترب من الفتاة ويجذب حجابها مزيلاً إياه دبّت الفوضى والصراخ والبكاء ، والمعلمات لا يدركهن فعل شيء ورجال الأمن الذين جاؤوا متأخرين لقد تم إفساد اليوم بكامله وانتهت الرحلة عند هذا الحد قبل أن يشعر أحد ببدايتها الأمر ليس بسيطاً كما يبدو ، فقط تخيلوا الرحلة الأولى لفتيات عبرن مرحلة الطفولة لتوّهن وللآن لم يعتدن على اختلال الهرمونات الصعب الفهم عليهن كان حادثاً قاسياً ، ومفسداً لكل متعة شعرن بها أو

رغبن بالشعور بها لما تبقى من النهار لو أنهن فقط ذهبن لمكان آخر مكان تنعدم فيه هذه المخلوقات الملوثة

-لا أعلم ماذا أقول يا مروة .. حقاً لا أعلم ماذا أقول صرخت بحماس : شكراً لكِ .. من القلب شكراً لكِ ! صمت تام على الخط الآخر .. شكر على ماذا ؟ إنها تنقل لها الأخبار السيئة فهل تخلل كلامها شيء يثير البهجة دون أن تنتبه ؟

ربما بهجة لها علاقة بالاهتمام البالغ والخوف عليها من كل شيء حتى الكلام الذي يمكن أن يمر مرور الكرام بالنسبة للبعض

- كم هو رائع ! يحبني ، ويهتم لكل تفصيل عني

هذا التسلط ليس سيئاً دوماً ،، معتمداً على سببه ومصدره قد يكون جميلاً ويعوض عن ألف رحلة مدرسية نزلت دمعة من عينيها وهي تمسك الورقة البيضاء

- إنها الورقة الأخيرة .. منذ مدة ، الأخيرة ! شكلّت بها فتاةً تحمل نقيض الابتسامة بذلك الشق الصغير في الوجه

بدا الوجه حزيناً جداً ، ووحيداً ! تقف بلا الرجل

أو ما أسمته بعد ذلك بالبطل

- البني ، لا تذكر الكثير عن تفاصيل ذلك اليوم مجرد ومضات قصيرة تبدو كمشاهد متقطعة من فيلمٍ قديمٍ يحتاج لإعادة إنتاج تذكر الصوت المدويّ للشاحنة إلا أنها لا تذكر ماذا دهاها لتقف كالتمثال في منتصف الطريق غير منتبهة على إشارة المرور الحمراء تشعر بقبضة تشد عليها وتسحبها إلا أنها لا تذكر تفاصيل الصورة ، لا أشكال ولا ألوان محددة أو ملامح واضحة لذلك اليوم لا شيء سوى العطر المفضل لآدم والذي لم يفارق ذاكرتها للحظة كم مضى على ذلك ؟ ربما ثلاث سنوات وخمسة أشهر ونيفٍ من الأيام التي كرهت أن تستمر بحسابها ثلاث

سنوات وخمسة أشهر بلا تلك الاسطوانة الزرقاء التي تعني الراتب الشهري والحليب الساخن والدلال

- اشتقت إليك أخي ، أتاها صوت من قرب الباب : هيا يا زنبق ، يجب ألّا نتأخر

- قادمة يا أمي قامت بجمع أبطالها الصغار ووضعهم في علبة خاصة ، ثم تناولت ورقة بنّية وضعتها كذلك ابتسمت بسعادة بعد أن أزالت شيئاً من البؤس الذي بدا على ملامحها قبل برهة وقالت : سوف أصنع أوريغامي البطل الذي استيقظ من غيبوبته هناك .. عنده .. لم يحن وقتها بعد ترى هل ستحظى باسطوانة الحلوى مرة أخرى عما قريب ؟ غريب أن هذا خطر على بالها وهي في الطريق إلى المستشفى

إلى حيث يرقد البطل الذي استيقظ لتوه .

أنا سعيد لأني وحيد

وقفت أمام ذلك الباب المغلق بصمت لا أذكر بمَ كنت أفكر وقتها لكني كنت حتما أفكر في شيء، شيء جعلني واقفاً هناك دون أن أطرق الباب أو أعود أدراجي

رفعت يدي التي كانت ملونة بألوان الألم

كدمات زرقاء ، جروح حمراء التأمت وبعضها يأبى الالتئام بتلك اليد التي عانت ، وعانى صاحبها طرقت الباب لم أنتظر طويلاً لأسمع جواباً من صوت غليظ لا يبعث على الراحة قال لي بخشونة : أدخل امتثلت له ، فتحت الباب ودخلت كان عبارة عن مكتب كبير الحجم على جانبيه رفوف تحمل سجلات كثيرة جداً ، وفي مؤخر المكتب نافذة بستائر فاخرة مفتوحة لمنتصفها أمام تلك النافذة طاولة من خشب بدا باهظا يجلس على كرسيها رجل بدين كانت ملامحه تدل على أنه حامل ذلك الصوت الغليظ. تقدمت نحوه بعد أن أشار لي بذلك جلست على أحد المقعدين الجلديين الموضوعين أمامه قربت قدماي ، وانحنيت للأمام قليلاً محاولاً بدأ الكلام عن سبب مجيئي إليه إلا أنه سبقني قائلاً :

لابد أنك تبحث عن وظيفة !

أجبته بسرعة ودون أي تردد : أجل يا سيدي ، بدأ يتفحص مظهري البسيط من رأسي نزولاً ليرى العمل المناسب لي قال بخبث :

لا أظنك تملك شهادة جامعية أيها الفتى صمتُ قليلا قبل أن أرد عليه ، كنت أفكر مرة أخرى أفكر في نفس الشيء الذي فكرت به عند الباب إلا أني إلى الآن لم أعرفه لم أطل السكوت فأجبته :

شهادة في الطب يا سيدي ، اتسعت مقلتي عينيه ما إن سمع جوابي أظنه كان ليختنق لو أكل شيئا وقتها لم أتفاجأ من ردة فعله هذه ، فمن هو الشخص الذي يحمل شهادة في الطب ويبحث عن وظيفة تسبب له كل هذه الأضرار الجسدية؟

تساءلت حينها عن السبب الذي جعلني أدخل كلية الطب وأخرج منها من المتفوقين لم أجد الجواب كالعادة فهذه ليست المرة الأولى التي أسأل نفسي فيها هذا السؤال ، نظر إلي باستغراب شديد سألني سؤالاً متوقعاً : لكن ، لمَ شخص مثلك يبحث عن عمل خارج نطاق الطب؟

كان سؤالاً وجيهاً أجبته بكل برود : الطبيب يملك قلباً يكون دافعاً له ليعالج المرضى

طيبةُ تجعله حنيناً على الجميع ، وأنا لا أملك أياً منهما لذا كوني طبيباً سيكون أمراً بلا فائدة قرب وجهه مني وقال باهتمام شديد : وهل أنت مستعد لقبول أي عمل؟

نظرت له بتعجب ، أوليس هذا واضحاً؟

قلت : أجل يا سيدي ، أي عمل بعدها بدأ هذا الرجل يضحك ملئ فاهه لم أفهم السبب وراء ذلك ، فسألته عنه أجابني إجابة جعلتني أرغب بقتله : أعذرني يا فتى لكن لا توجد وظيفة متوفرة حالياً عد بعد ثلاثة أشهر وقد تجد واحدة من حسن الحظ أني شخص هادئ

وإلا لأنتهى الأمر بسقوط آدمي من النافذة التي تبعد خمسة طوابق عن الأرض نهضت بسرعة من على المقعد وغادرت دون قول كلمة واحدة أغلقت الباب خلفي بعصبية نادراً ما أشعر بها لم أسمع وقتها سوى صوته الضاحك وهو يقول : أنصحك أن لا تضيع شهادتك يا فتى اذهب واحصل على وظيفة في المستشفى لم أكترث بكلامه ، غادرت المبنى عابس الوجه

عدت أدراجي إلى شقتي جاراً أذيال الخيبة ورائي ظننت أني سأحصل على وظيفة ما بعد أن طردوني من وظيفتي السابقة كحامل مواد المخازن من حبوب وغيرها بسبب زيادة العاملين أظن أن هذا ما يسمى بالنحس أو الحظ الأسود حيث أنهم اختاروا أكثر شخص محتاج للمال في هذه الفترة كلهم لديهم عائل يعيلهم على عكسي نسيت إخباركم شيئاً عن شقتي أو بالأحرى شقة الأحلام هي شقة تقع في أقذر مكان في هذه المدينة ليست شقة بالمعنى الحرفي فما هي إلا قبو في بناء رميم قبلت العيش فيه مع الجرذان لأوفر بعض المال بسبب قلة ثمن الإيجار كان يوما متعباً جداً ، أتجول من رجل ذي نفوذ في إيجاد وظائف إلى آخر ، وكلهم على نفس الشاكلة حمقى وبلا عقول تماماً رميت نفسي على السرير الذي ظننته سيتحطم لحظتها ، وكل ما كان يشغل تفكيري هو آخر كلام للرجل (لا تضيع شهادتك) أظنه محقاً أن يصبح المرء طبيبا سيوفر له العيش الرغيد ابتسمت ، وأنا أقول لنفسي بصوت خافت :

لن تخسر شيئا يا ريك لم أشعر بعدها بشيء ، فقد غططت في نوم عميق استيقظت في صباح اليوم التالي وفي بالي شيء واحد بلا منازع ألا وهو

"إيجاد وظيفة في المستشفى" أخذت شهادتي التي كانت كل ما لدي من الماضي وغادرت ذلك المكان العفن على أمل عدم العودة له والمبيت فيه مرة أخرى ذهبت إلى ذلك البناء الضخم ، دخلته والشك يملأ نفسي السوداء إذ هل سأجد هنا عملاً؟ سألت بعض الممرضين في المستشفى عن مكان المدير فأشاروا إلى الطابق الخامس ما هي مشكلة الطابق الخامس؟ أهو قانون دولي ينص على وجوب جعل مكاتب المدراء

في هذا الطابق؟ سرت ناحية المصعد ، وما إن وطأت قدمي أرضه حتى رن جرس إنذاره معلنا الوزن الزائد ها هو حظي الأسود من جديد صديق عمري الوحيد بلا شك نظرت إلى يمين المصعد حيث كان السلم تنهدت بصوت مرتفع سمعه كل من كان حولي قلت بشيء من الانزعاج : يا لها من بداية موفقة صعدت السلم بنشاط رغم انزعاجي لكني معتاد على المشقة لذا وصلت الطابق المطلوب بسرعة ، ودون عناء أمامي يقبع باب آخر موصد في وجهي ابتلعت رمقي ، وطرقته هذه المرة كان هناك صوت ناعم رد من خلف الباب :

تفضل هل يعقل أن تكون فتاة؟

الصوت يدل على ذلك ، ولكن هل يعقل أن هناك فتاة قادرة على تحمل مسؤولية مستشفى كامل؟ قطعت حبل تساؤلاتي الكثيرة بالدخول كانت توقعاتي في محلها ، إنها فتاة بشعر أسود طويل وبشرة سمراء ، ترتدي ملابس المستشفى البيضاء لم يعجبني أن يكون المدير فتاةً لكن ما باليد حيلة أخبرتها عن هدفي من إزعاجها في هذا الوقت الباكر من الصباح ، ظننت أن ردة فعلها ستكون مشابهة للجميع (عد بعد أشهر وقد يحالفك الحظ)

إلا أنها قالت بأدب وابتسامة مرسومة على محياها : أهلاً وسهلاً بك بيننا سيد ريك ، لم أستطع فعل شيء وقتها غير إظهار مدى سعادتي لقبولي هنا باشرت العمل من يومها بعد أن ملأت الاستمارات المطلوبة اختصاصي كان في معالجة الكسور وتمزق العضلات هذا بالإضافة إلى معالجة كافة الأضرار الجسدية الناتجة من الحوادث اليومية أظنها بداية جيدة أنا متفائل من كون حظي أصبح الآن رمادياً وقد يصبح أبيضاً يوماً ما إن صبرت أكثر مر أسبوعان على بداية عملي كطبيب أعالج الناس دون أي مشاعر تعبر عن ارتياحي لسلامتهم كانوا يلقبونني بالشاب

القاسي بسبب ذلك في هذا اليوم جاءني رجل في الأربعين من عمره صدمته شاحنة جلبه المسعفون إلي ، تلك الدماء التي كانت تخر منه كمياه الصنبور لم تحرك شيئاً بداخلي أبداً أوقفت النزف بصعوبة بمساعدة الممرضين الذين يلازمونني دوماً أحياناً أتساءل ، هل أنا بشرٌ حقاً؟

لقد أنقذت حياة هذا الرجل للتو إلا أني لم أشعر بشيء استعاد وعيه ولم أقل له حتى عبارة

"حمداً لله على سلامتك" في تلك اللحظة دخلت طفلة صغيرة إلى حيث يستلقي الرجل جرت نحوه وقفزت في حضنه ، السعادة غمرت وجهها الطفولي همست لنفسي :

مات الرجل كيف لا يموت بعد تلك القفزة التي قفزتها الصغيرة؟ ظننت أن الرجل سيوبخها أو شيء من هذا القبيل

لكن ردة فعله أدهشتني ، طوقها بذراعيه المضمدتين ، وقال باسماً :

كيف حال جوهرتي الصغيرة؟

بخير كما أتمنى من الرائع أنك كنت بعيدة وقتها عن مكان الحادث حوّلت نظراتي المتعجبة إلى تلك الطفلة التي قالت ، وهي تبكي :

أنا سعيدة ، سعيدة يا أبي لا تتركني مهما حصل ! فأنا ليس لي سواك أنت عائلتي الوحيدة ، والغالية أحبك يا أبي ، أحبك ..

عائلة؟!

لطالما تساءلت ، أين عائلتي؟

أعتقد أن هذا هو السبب وراء قسوتي غير المنتهية لا أذكر شيئا عن عائلتي تربيت في ميتم عانيت فيه الأمرّين كسبت لقمتي بعرق جبيني منذ نعومة أظافاري لم أدخل كلية الطب حباً بها بل لأني استطعت دخولها بمعدلي العالي لا أكثر الشيء الوحيد الذي

أعرفه عن عائلتي هو أني أكرهها أكرهها من أعماقي كوني أعيش بمفردي شيء يجعل حياتي أجمل ، فأنا لا أريد التعلق بعواطف أكتشف في النهاية أنها مزيفة أن لا أصاب بجرح في داخلي أفضل من أن أصاب به ، فأحاول علاجه لكن الأثر يظل باقياً سأكون كاذباً إن قلت بأني لا أفتقد تلك العواطف الدافئة إلا أني بدونها سأغدو أفضل حالاً نعم أنا سعيد لأني وحيد وهكذا سأظل حتى آخر أيامي برغبتي .

انعكاس

كان يوماً صيفياً حاراً ، يتصبب فيه العرق بغزارة تحت شمسه اللاهبة هكذا كان يجب أن أصف هذا اليوم ..
هكذا كان يفترض أن أكتب في مذكراتي يوماً صيفياً حاراً لكنني رأيته مختلفاً كان يوماً منعشاً
الهواء الدافئ يحرك أهدابي المتحررة أخيراً أنا نفسي تحررت أخيراً من ذلك المكان ، شعرت أني سأتعفن فيه حتى الموت مضت سنة كاملة لم أشعر فيها بجمال الحياة إلا من خلف الزجاج من وراء جدار وعلى ألسنة من حولي كل واحد يصف العالم الخارجي بما يريده هو لست أتوقع بالطبع أن يكون كل شيء قد تغير فما هي سوى سنة واحدة أمضيتها هنا ماذا قد يحصل في سنة واحدة ؟

ليس أسوأ مما حصل قبلاً أشعر بخسارة موجعة أكابر لتجاهلها ، ياله من يوم كانت تخيلاتي عنه شيئاً آخر لم يكن بعيدا عن بالي أن ينشب حريق فجأة بل هو لم يكن على طريق بالي أساساً بقربه أو بعده بعد العلاج والعمليات ، قالوا لي أن جسد ي سيتعافى في غضون عدة سنوات بشكل تدريجي ليس هذا ما كان يضايقني بشدة بل خسارتنا للبيت الانتقال لحي جديد مودعة أماكن طفولتي ومراهقتي وكل ذكرياتي الجميلة والكئيبة أيضاً لكن حزني لم يدم ، كان حزناً لسنة فقط سأخرج من هنا وهذا ما يهمني لهذا كنت سعيدة جداً رغم حرارة الجو ، سعيدة جداً بتلك الغرفة السمائية اللون الجديدة التي وللأسف لن تشهد على سهراتنا الخالدة أنا وصديقتي وسعيدة جداً بتلك المرآة الكبيرة القديمة الصنع التي

سأراقب بها تحسن حالتي يوماً بعد يوم. لست أنكر الشعور بالخوف الذي لازمني كل الوقت ، الخوف من أن أكون قد خسرت خسارة لا تعوضها سنة أو سنوات فكرت أن أكتب تاريخ اليوم أول يوم أنظر به لنفسي بعد فتح الضماد ، وكأنني دجاجة مجمدة يتم تحضيرها للطهي الآن ، الجميل بالأمر هو أنها ذابت أخيراً تغيرت حالتها لشيء آخر تتمناه جيداً ما يرهقني هو الصبر الذي عليّ استيعاب مقداره لا يزعجني أبداً أن أصبر لسنة أو سنتين أراقب اختفاء ندبة واحدة ما يزعجني حقاً هو التفكير في أنه يجب عليّ أن أنتظر سنة أو سنتين لحصول التحسن التفكير في الأمر يوتر أكثر من الأمر ذاته لكن لا بأس ، النتيجة التي أترقبها تشحذ همتي اليوم الأول مرّ ببطء خفيف

ما زلت في بداية المسير إنها الساعة الثالثة متواصلة أقف أمام مرآتي أحدق ، أبدو كطفلة الخمس سنوات التي تنتظر السحر يحصل تنتظر عقارب الساعة تتحرك بجنون معلنة حصول المعجزة ! الساعة الثالثة من كل يوم تمر لست أعتكف في البيت أقضي يومي طبيعياً كما يقضيه معظم البشر ، لكن يومي أنا يخلو من البشر !

أخاف منهم في الحقيقة لا أخاف الكبار بقدر الصغار الذين سيهربون مني أنا لست أبالغ أو أهوّل أبداً شكلي يخفيني أنا فكيف بهم !

لكن هذا لا يؤثر على نفسيتي كثيراً لا يؤثر عليّ

كأنا ، بل عليّ كفتاة تحب أن تبدو جميلة لكن هذا الخوف بدأ يتسلل لخلاياي "أنا" شيئاً فشيئاً إنها الدقيقة الخامسة من أول يوم في السنة الثالثة لا تغيير لم تعد فترة وقوفي تتجاوز الخمس دقائق لم أعد أطيق الوقوف أصلاً أستيقظ صباحاً وكلي إشراقة روحية بتبدل شيء ما لأصدم أمام المرآة بذاتي الباقية ولا أدنى

تغيير ، تماماً كاليوم الذي خرجت فيه من المشفى لكن بشكل أسوأ بملامح أكبر عمراً تزيد القبح قبحاً صرت أكره كل شيء كل شخص حولي كلهم كاذبون ..!

أغادر غرفتي لأرى أمي تهتف بفرح :

لقد تحسنت حالتكِ كثيرا حبيبتي ، بقي القليل فقط لتعود طفلتي الصغيرة نجمة تضيء صرت أسمع هذا الكلام من الجميع ولم أعد أعيره أي اهتمام وان كنت سأهتم فليس كما يريدون سأصرخ ، سأبكي ، وربما قد أكملها "سأحطم شيئاً" هل يرونني غبية ؟ أي تغير هذا الذي يشاهدونه ولا أفعل ؟

في كل مرة أشك بنفسي وأعود لأنظر إليها إلى "أنا" وأراني كما كنت وكما سأظل على ما يبدو أذكر تلك المرة التي أجبروني فيها على الذهاب للطبيب المختص ليراني كان منبهراً بالتحسن "الملحوظ" كما وصفه الذي شخصه عليّ وأذكر مرآته الصغيرة الموضوعة قرب سرير التشخيص في عيادته ، المرآة التي قبل أن أنظر لها ضربتها من يده أرضا لتصير فتاتاً كرذاذ كريستالي عكس الضوء ليتلألأ اندماجي بالمنظر الجميل هذا أبعدني عن أصواتهم حولي تلك الأصوات التي سرعان ما صرت أصفها بيني وبين نفسي بالمنافقة ماذا الآن ؟ أوه !

إنها العزلة أخيراً الآن قد دخلت بمرحلة الاعتكاف التي نفيتها قبل ثلاث سنوات سبعة أشهر مرت ولا شيء !

حياتي تمر ولا شيء !

إنه شعور مؤلم .. مؤلم جداً

يظنونني مجنونة وأنا من يظنهم كذلك !

ماذا أكتب في مذكراتي الآن يا ترى ؟

هل يكفي أن أكتب أنني من أسعد الناس هكذا وبطريقة بدائية تقليدية كما قد يكتبها أي أحد مرّ بموقف سعيد ؟ ما حصل أنني

كنت فعلاً الطرف المجنون وأظن –بل مؤكد- الطرف الغبي كذلك كان انقلاباً جذرياً في حياتي حين اقتحم أخوتي الغرفة وحملوني من سريري خارجاً أصرخ بهم : إلى أين تأخذونني أيها الوحوش ؟

إلى باب المنزل ، هناك حيث رأيتها ما تزال محاطة ببعض القطع الكرتونية لحمايتها من التهشم مرآة جديدة !

قلت لهم هازئة مخفية انجذابي لجمالها :

مرآة أخرى ! لا شكراً، تكفيني واحدة أراقب بها مأساتي كل يوم ولا أحتاج مضاعفتها لكنني لا أحصل على جواب في الحقيقة حتى لو أجابوا ما كنت لأسمع ، كنت فاقدة الإحساس فاقدة السمع والنطق لا البصر فاقدة لكل شيء عدا النظر وأنا ألمح البياض منعكساً أمامي .. مني !

اقتربت مرتجفة ، لا يمكن أن أخوض غمار يوم ارتعبت فيه كهذا اليوم أبدا ولا حتى يوم المأساة التي أوصلتني إلى هنا إنها أنا !

قلتها بهمس وأنا أمد يدي لألمسني كمن يتعرف على شخص جديد بدا له كتوأمه إنها أنا القديمة ! ..

البيضاء الجميلة القديمة لكن كيف ؟ !

ضحكت بهستيرية وأنا أذرف دموع الفرح :

تباً لتلك المرآة المسحورة المرآة التي لم أرها في حياتي قط بعد ذلك اليوم اختفت بمجرد أن دخلت غرفتي متعافية من كل شيء !

تغيير العالم

إنها المرّة الثانية التي تعيد فيها هذا الامتحان وترسب ما بال هذه الدرجة التي تنالها ؟ ليس سوى امتحان تعبير !

ـ كيف أغير العالم ؟ هه الأمر مستحيل ببساطة

هذا ما تفكر فيه ، هذا ما جعلها ترسب رغم أن العنوان كان ذاته في الاختبارين الجميع نجح وكل واحد فكر وكتب بطريقته الأدبية وإن كانت مبالغة لكن هي .. أليس غريباً يأسها هذا ؟

مشكلتها أنها تترك ورقتها بيضاء ناصعة وتكتب في طرفها السفلي

"العالم سيتغير عندما يصبح خالياً من البشر كما تخلو هذه الورقة من شيء"

عقليتها مظلمة .. ورغبتها مبيدة .. !

لا يبدو أنها ستنجح إن تابعت هكذا ، لم يكن أمام معلمتها سوى أن تطلب منها شيئاً أخيراً إذ لم يسبق لأحد أن أعاد الفصل بسبب مادة كهذه

"غيري العالم بنفسكِ يا حسناء"

ها هي ذي تسير على غير هدىً في الشارع ، تفكر بمستوى الجنون الذي وصلت إليه معلمتها لتطلب منها طلباً كهذا ، لو أنها تعيد الامتحان لثالث مرة فتكذب كما كذب زملاؤها طمعاً بالدرجة لكان أهون حتماً أهون ، استوقفها بكاء الطفل الصغير أمامها لقد تعثر بحجارة صغيرة أوقع بسببها البوظة الوردية على الأرض لتتلذذ بها ممالك النمل الجائعة عما قريب ، أسرعت صوبه وهي تبحث عن شخص سيهرع إليه .. قريب له .. مرافقه الذي أتى به إلى هنا ، لكن لم يكترث له أحد

-لا تبكِ يا صغيري ، هلمَ معي لأشتري لك غيرها إنها لا تستحق دموعك الغالية

قادته إلى عربة المثلجات وهي ممسكة بيده الدبقة اشترت له وأخذته على أحد مقاعد حديقة قريبة

- كلها يا صغير ،عندما تنتهي منها أخبرني أين والداك ؟ لمَ أنت وحيد ؟

-لا أعلم .. لقد ذهبا ..!

إلى أين ؟

- لا أعلم

ترقرقت عيناه بالدموع مرّة ثانية ، كم هو مؤلم منظره ، لم يكد يكمل ما في يده حتى سمع وإياها صوتاً ينادي "زيـــن .. ولدي العزيز ها أنت ذا" امرأة في عقدها الثالث تركض إليه مسرعة لتحتضنه بقوة ، ورجل يسير من بعيد بابتسامة نصر ، لقد عثرا عليه

- نحن آسفان جداً على اتعابكِ ، شكراً جزيلاً لاهتمامكِ به

-لكن لمَ تركتماه وحده ؟

سألت مستغربة إذ أن لهاث الأم يبدو كأنها كانت تجري كثيراً ومن مسافة بعيدة !!

هما لم يضيعاه بالقرب من هنا

-لقد كنّا ذاهبين إلى مستشفى الأطفال للتبرع إليهم وأخذناه معنا ليزورهم ويصادقهم ..

لقد قضى سنة من عمره في المستشفى بسبب مرض ظننا أنه سيفتك به لكن حمداً لله أنه خرج من المحنة سليماً معافى ونحن من يومها نزور المشفى شهرياً ونأخذه معنا في أغلب الأحيان لكنه اليوم اختفى بينما كنّا ننهي صك تحويل المال ولم نعثر عليه

إلا الآن "أعجبني هذا يبدوان زوجين لطيفين ويبدو هو طفلاً لطيفاً أيضاً"

فتحت فاهها بدهشة وهي تهمس :

هذه هي ! صرخت بحماسة وهي تصافح الوالدة : شكراً لكما ، شكراً جزيلاً لكما ، انحنت لتقبل وجنة زين وهي تقول :

ممتنة لك يا صغيري .. سوف أنجح !

أخيراً سوف أنجح بفضلك !

إنها الورقة الثالثة .. لقد ذهلت بدرجتها التي نالتها علامة تامة بمختصر التغيير "كيف أغير العالم "؟ عندما يملأ بأناس قلوبهم بيضاء قطنية ، ملامح حلوة وأرواح نقية .. لو خلا منها العالم لانهار منذ زمن لكنها الآن بدأت تتساءل .. إن كان أضاع والديه في المشفى ، فمن اشترى له البوظة التي أوقعها ؟

هزت كتفيها ببلاهة وفكرت :

ربما قلب قطني آخر !

ضحكت بسعادة وهي تحتضن ورقتها الغالية .. !

حرية .. تتهاوى

اصطكت أسنانه ببعضها من البرد ، أطرافه تصلبت لا ينفعها لهب تلك الشمعة التي تبعد عنه خمسة أمتار هي لا تكفي لتضيء له ، فكيف بإشعاره بالدفء! جال في فكره معنى كلمة ما الحرية ؟

أراد تفسيرها عدة مرات دون جدوى ، فكم سمع بها دون أن يفهم معناها ولا لأي شيء ترمز

أسئلة غريبة بدأت تخطر على باله وهو جالس في الظلام وحده ، على تلك الأرض الرطبة ، لماذا هو مقيد لا يسعى لما يريد منذ أن وعى على ما في هذه الدنيا؟

لماذا القمر يبدو أبعد من الشمس عندما ننظر إليهما في اليوم ذاته؟

لماذا هو وحيد لا يجد من يحدثه؟

لماذا يؤلمه جسده في الشتاء أكثر مما في الصيف؟ أسئلة ليس فيها من الترابط شيء لكنها تهاجمه كل ليلة لتؤرقه .. حل الصباح ، صوت صرير الباب أرجف أوصاله فها قد بدأ يومه الذي سينتهي ككل يوم اقترب منه رجل ضخم مرعب الملامح ليفتح قفل السلسلة التي تربط رقبته , ليس هو من تحرر منها بل قدم الطاولة التي كان مربوطاً بها خرج مكرهاً من تلك الغرفة الباردة بطريقة غليظة تجعله يتمنى البقاء على تكرار ما ينتظره ساعات مضت وها هي الشمس تتوسط كبد السماء رغم أن وجودها لا يكاد يشعر به أحد فهي تارة تختفي وراء الغيوم وتارة

تخفيها الغيوم وراءها ! ذلك الطفل ذو الأحد عشر عاما يسير في الشارع جاراً عربة ما كان بهيمٌ واحد ليقوى على جرّها
ليس لأنه قوي أو ما شابه بل لأنه يناقض طبيعته ويفجر طاقته خوفاً من تلك السياط التي ألهبت جسده أ ليس هذا وقت إعادة سؤاله من جديد؟
لماذا جسده يؤلمه في الشتاء أكثر؟
لماذا تبدو الشمس أقرب؟
وبقية الأسئلة ! تجاهلها تماماً ولم يعد لها أي أهمية عنده هل هذا هو السبب حقا؟
أم لأنه تهاوى على الأرض قبل أن ينطق عقله بما تبقى من أطروحات استفهامية؟
-عزيزي الصغير ، القمر أقرب من الشمس لنا لكنك تنظر للصغير ، للضعيف كما أنت تماماً تبدو بعيداً عن الأنظار عكس البقية
-عزيزي الصغير ، البرد يتسلل لجروحك فيشعلها كما تشعل الشرارة الحطب ، لهذا أنت تحب الصيف كثيراً لأنه يخفف عنك أوجاعك
-عزيزي الصغير ، الحرية ليست صعبة الفهم أبداً ألحرية هي أن تتهاوى على الأرض دون إذن ، يطلب منك الوحش أن تنهض دون أن تطيعه ، تسمعني أنا حبات الجليد الصغيرة أخاطبك دون أن تسمع بقية الأصوات ، الحرية أن ترتاح تاركاً روحك هذه وشاطراً ما بينكما من أواصر فتتحرر منها وتتحرر منك ليرتاح كلاكما من هذا العذاب
-عزيزي الصغير ، بقي لك سؤالان لست أنا من يجيب عنهما بل أنت .

ذكريات محارب

نظر من نافذة غرفته استجابة لرغبة نفحات الهواء الباردة التي لسعت وجهه تحثه نحو ذلك المشهد الذي صار يتكرر أكثر مما يجب ، بدت الأمور على حالها لا تتغير منذ أعوام الناس تتراكض في كل الاتجاهات من الفجر قبل أن تشرق الشمس على صباحهم المظلم علهم يجدون ما يحتاجونه من أدوات كي يرمموا ذلك الحطام الذي لم يبدُ أنه سيرمم يوما لكن الأمل ... الأمل هو ما أطل عليهم كما تطل الخيوط الذهبية كل يوم ، لكن ما يختلف هو أن الأمل هذا لا يزول بزوال الضوء بل يظل متربعاً على عرش القلوب التي أكلها اليأس فترات طويلة. تراءت له تلك الذكريات السوداوية

-آه ... لقد حان الوقت

هكذا قال الرجل المراقب بعد تنهيدة قوية أطلقها

لقد آن أوان تلك الطقوس اليومية !

أرجع رأسه للوراء على الكرسي الذي كان عليه جالساً أغمض عينيه واستسلم لسيل الذكريات

صباح عادي كان الذي احتضن اليوم "المشئوم" حيث انطلق نداء الواجب يحث الرجال على ترك دفة القيادة في البيت ملبين صيحات الوطن الذي ناداهم لاهثاً يطالب باسترداد حقه الذي سلب منه جبراً

خرج من بيته ذلك اليوم حاملاً بندقيته التي شهدت الكثير والكثير ، فقد ورثها من والده الذي ورثها هو الآخر من والده من الجد ،

إلى الابن ، فالحفيد ، كان حب الدفاع عن الوطن يجري في عروقهم

مرّ شريط الذكريات بسرعة أمام عينيه لتتشابك شرائط الماضي حابكة حكاية ذلك اليوم عندما انطلقت الصفّارة تعلن وصول العدو لمركز مدينتهم خرجوا جميعهم حاملين بنادق الحق ، وصارخين أنه لن تطأ أرض بلادهم الطاهرة تلك الأقدام الملوثة هممهم كانت تلامس السماء ومعنوياتهم ليس لها حدود ، فقد كانت رايتهم ترفع اسم الوطن الحبيب صوت صرخة مدوية هزت كيان "عماد" الذي انتفض من موقعه يلتفت يمنة ويسرة !

لقد كان هذا الصوت مألوفاً ، بل وغالياً عليه فلم يرتح له بال إلى أن عثر عليه ، ذلك الجسد الذي تضرج بالدماء بدا حقا يتألم ويئن من العذاب. الدماء انتشرت في كل مكان ، ليس دماؤه هو وحسب بل الكثيرين ممن سلبت منهم الحياة صوت الصراخ توقف ، أو بالأحرى صوت المتألم توقف ، بعد صرخة "عماد" التي اخترقت حجاب الرصاص : ســــــــامـــــــــر ! لكن (لا حياة لمن تنادي)

فالروح غادرت الأرض آخذة معها تذكرة السفر للسماء ، وأي جسد بقي ؟

نصف جسد بالأحرى هو ما قد يصف ما ظل متروكاً هناك ، أيام مرت وكأن الشمس لم تشرق على تلك الأرض المدمرة ، كيف تُرى أشعتها وذلك الدخان سلب نقاوة الهواء الذي لطالما تميز بصفائه لقد بكت الأرض كثيرا وقتها حتى اعتقد الجميع أن أوان جفاف دموعها الحمراء القانية قد حان صوت صفارة الإنذار انطلق بصوت اعتاد عليه الجميع بعد أن كان صوتا لم تألفه القلوب الفتية

لقد اكتملت مراسيم الاحتلال!

نظرات اليأس اعتلت الوجوه ، والأسلحة انخفضت لتلامس الأرض لقد أخفقت مهمة الدفاع عن الوطن أخفقت! هذا ما تبادر لذهن "عماد" ورفاقه ممن بقوا أحياءاً ، وهم يرون علم العدو يرفع في القاعدة التي بعدت عنهم 500 مترا فقط جثوا على الأرض بفقدان أمل تام ، وهم يسمعون صرخات الفرح من المحتل إلا أن شيئا ما قطع عليهم استماتتهم ، فصوت "عماد" اخترق عقولهم النائمة بكل تفاؤل :

علينا أن نقاوم يا أبطال ، هذا وطننا ويجب أن نحميه ونقاوم حتى آخر رمق فينا ، حتى آخر نفس فينا صوت جاءه من أحدهم :

ولكن يا "عماد" ، نحن خمسة فقط ، فماذا قد نفعل لمواجهتهم؟

ابتسم المعني ابتسامة نصر ، ورفع كفه ليضرب به صدره قائلا بإصرار :

هل نسيت؟

هل نسيتم جميعا العهد الذي عاهدناه عندما خرجنا للدفاع عن وطننا؟

لقد أقسمنا على ألا نسمح لأي قدم قذرة بأن تطأ أرضنا الطاهرة الوقت لم يحن لنستسلم بل هو الوقت المثالي لنريهم ولنجعلهم يعرفون من نحن حقاً نحن لسنا من نستسلم ، ماذا سيقول آباؤنا لو عرفوا بانهزامنا هذا؟

لا عار في هذا البلد ، بل قتال حتى الموت لأجل الحـــــــــريـــــــة !!

رفع يده بقوة عالياً ليردد الكلمة الأخيرة مراراً وتكراراً حتى تحث نفوسهم على الانطلاق

الحرية .. الحرية ، سنسعى لأجل الحرية !

انتهت تلك الذكرى ، أو بالأحرى انقطع الشريط وتوقف عند هذا الحد البقية عند رفاقه الذين احتضنهم الثرى بعد أن كان مصيرهم

كمصير "سامر" والبقية أما "عماد" فلم يستطع إكمال القتال وقتها لآخر لحظة رغم رغبته المستميتة لذلك لم يشعر إلا والشمس قد غادرت نافذته مختبئة خلف غيمة من غيوم السماء الرمادية

-لقد غرقت في بحر الذكريات من جديد !

قالها بصوت مكسور وهو ينظر للبعيد لذلك الركام الذي بدأ أخيرا بالانصلاح

أدار ظهره لنافذته التي شهد من خلفها الكثير مغادرا على ذلك الكرسي المتحرك! .

رسالة إليك من قلب متحجر

جلس يتأمل تلك النار بصمت ، وملامحه لا تعطي أي تعبير لقد احترقت الأوراق كلها وتلاشت وها هو الآن يرمي بأخرى لتسكت جوع اللهب . ظلت عيناه تنتقلان بين أرجاء الغرفة بلا هدف محدد حتى وقع نظره على ظرف رسالة موضوع على الأرض بقربه حيث كان جالساً ، حدق بها مطولاً ببرود
وبذهن بدا شارداً قال :
متى سأرسلها ؟
مدّ يده السمراء التي بدت مصفرة بسبب انعكاس نور اللهب عليها ، ليمسك بتلك الرسالة ، نهض من على الأرض ليقف منتصباً ينظر إلى الساعة التي تشير إلى الثالثة صباحاً لحظات الصمت تمر ببطء شديد دوماً ، فتبدو وكأنها سنين تأبى الانقضاء لم ينتظر لتنهي الدقيقة عدّادها ، بل خرج من الغرفة مسرعاً راسماً طيف ابتسامة على شفتيه المائلتين للبياض. أغلق باب منزله وراءه ، وأصبح يسير وحده في ذلك الشارع المظلم. لا شيء يُسمع
سوى صوت سيمفونية الهواء المنعش مع نوتات نباح الكلاب المشردة ، ظل يسير حتى وصل إلى شارع واسع على أحد جانبيه بناء متوسط الحجم عليه لافتة كبيرة من الأعلى "مكتب البريد" ها هي الابتسامة تعود مرة أخرى لتداعب محياه ، لكنها كانت ممزوجة بشيء من التردد ، ابتلع ريقه بتوتر وبلل شفته السفلى ثم سار أولى خطواته نحو مكتب البريد ، بعد خمس دقائق خرج الشاب واضعاً يديه في جيبيه عائدا لمنزله ، وعلامات الارتياح لم

تزل تتربع على عرش ملامحه ، بعد يومين عندما استيقظ من نومه كان مرتاحاً سعيداً بدا على غير عادته التي لطالما كانت التعقيد والاكتئاب المستمرين ناهيكم عن القسوة التي تميز بها قلبه المتحجر!

قرر بعد تناول فطوره أن يتنزه قليلاً كعادته كل صباح، يبدو أنه نسي أمر رسالة أول أمس أو لنقل تجاهلها ظناً منه أنه لن يتلقى أي رد مهما انتظر سار في ممر حديقة منزله ، ونفحات الهواء البارد تلسع وجهه لتنعشه ، وقف أمام صندوق بريده قليلاً ظل ينظر له بعمق وكأنه يتمنى لو يملك بصرا يخترق ذلك المعدن ليرى ما وراءه !

مدّ الشاب يده التي ارتعشت لوهلة ، وفتح الصندوق ليبصر من ذلك الظلام ظرفا أبيضا بدا كالأمل يخترق حياته دون إنذار، عاد يجلس أمام تلك النار الملتهبة ، مرّت اثنتا عشرة ساعة منذ أن أخذ الرسالة من صندوقه ، لكنه لم يتجرأ على فتحها حتى الآن يمسك كأس الماء المثلج ويحركه بعشوائية بيده اليسرى ، أما بصره فلا ينفك يتنقل بين النار وأمله أو فنائه ، ها هو ذا التردد يتلاشى كما تلاشى عندما قرر أن يرسل ما أراد ، فتح الرسالة أخيراً !

قرأها بتمعن شديد ، وبريق غريب بدأ يشع من عينيه

"بني عاصم لقد تلقيت رسالتك صباحاً لا تعلم كم اشتقت لك يا صغيري ...! نعم فأنت صغيري مهما كبرت ومهما السنون مرت لتصبح ذلك الشاب الذي أنت عليه الآن أعلم أنك نادم على كل شيء فرسالتك كان مرآة مشاعرك يا بني لقد سامحتك على كل ما حصل فقد مضى وانقضى كم تمنيت هذه اللحظة على مدى الخمس سنواتٍ الماضية لقد أنعشت قلبي من جديد يا عاصم وأنا فخور جداً بك

سأعود ! نعم سأعود لأرى كم تغيرت ، كم كبرت بإذن الله سأكون على عتبة بابك مساء الغد "

والدك الذي يحبك

قطرة شفافة مالحة سقطت على الورقة لتبللها وتظهر بقعة صغيرة عليها ، تبعتها قطرات لم يستطع عاصم أن يمسك نفسه عن البكاء كان يبدو كمن يبكي بمرارة ، لكن لا ... لقد كان يبكي من فرط السعادة التي غمرت قلبه وهو يطوي رسالة والده ويضمها لصدره بقوة بينما هو يلملم فتات رباطة جأشه ليتوقف عن ذرف الدموع سمع الباب يطرق بلطف ، ذلك الشوق ، ذلك الحنين لم يعطه الوقت ليفكر أبدا بل نهض بأسرع ما استطاعته قدماه متوجها نحو باب بيته فتحه ، وإذا به يرى والده الحبيب الذي طال انتظاره

-مرحبا يا بني

-أبـ ... أبـــي ، لقد أتيت فعلاً ..؟

ابتسم له بود وأجاب :

كما وعدتك ..!

رمى نفسه في أحضان والده وهو يصرخ باكيا :

ـ أنا آسف ... آسف على كل شيء يا أبي

أنا أحبك ولا أريدك أن تتركني أبداً

أعدك أني سأتغير للأفضل

سأكون ابنك الذي تفخر به

أرجوك سامحني على كل ما فعلته في السابق

عن قسوتي ، أنانيتي ، قلة أدبي معك ، جرحي لك طوال الوقت ، وعن طلبي منك الخروج من البيت وعدم العودة ثانيةً
لقد رحلت فعرفت قيمتك ، لا تتركني بعد الآن أرجوك ..
ربت على كتفه بحنان ، وقال :
ـ أعدك أني لن أفعل ، فقد مرت تلك السنوات كأني في جحيم بسبب بعدك عني تابعا العناق طويلاً إذ أن خمس سنوات من الحرمان لن تعوض بعدة دقائق .

سأكون أنت

في تلك الليلة الشتوية الباردة كانت تقف عند محطة القطار تنتظر شخصاً لا تعرف من هو أو بالأحرى نسيت من هو، كانت تحمل بإحدى يديها كتابا توسطه عنوان "كيف تتمتع بحياتك وتعيش سعيدا ؟ "

لكن وبصراحة لم يبدُ عليها أنها ستفهم حرفاً من الكتاب إذا ما قرأته ، إذ كيف تفعل من لم تتجاوز العاشرة من عمرها بعد!

العبوس والبرود غلف ملامحها وأخفى براءة طفولة كان يفترض أن تتمتع بها وهي بهذا العمر

سمعت صوتا من خلفها يقول بلطف :

ـ هل أنتِ (منال)؟

استدارت لترى شابا بشوش الملامح لا يبدو أنه تجاوز الخامسة والعشرين من عمره،قالت له ببرود: ـ أجل أنا ، ومن أنت؟

لم تزل بسمته عندما أجابها :

ـ أنا (هاني) ، سررت برؤيتكِ وعذرا منكِ إن كنت قد تأخرت قليلاً

ـلا مشكلة ،عندها تذكرت كلام عمتها عندما أوصلتها إلى محطة القطار أول الأمر

ـ (منال) لا تنسي ما قد سبق وأخبرتكِ به

إياكِ وإغضاب (هاني) يا عزيزتي ، فهو كان معروفاً منذ صغره بعصبيته غير الطبيعية وضربه لكِ بشدة قبلاً ، لذا لا تفعلي شيئاً يزعجه لأنه أبداً أبداً لن يتردد بإبراحكِ ضرباً

ـ حاضر يا عمتي ..

عانقتها عمتها وضمتها إلى صدرها بحنان وهي

تقول بحسرة :
ـ آه يا طفلتي العزيزة ، ما كنت أرغب أبداً أن أبعدكِ عني لكن أخوكِ سافر منذ سنوات وعاد الآن مطالباً بحق الوصاية عليك وما باليد حيلة ، لم تكترث (منال) بهذا الكلام كله ، فهي لم تشعر بالانتماء لبيت عمتها ولن تشعر بذلك في بيت أخيها حتماً ،عادت لأرض واقعها البارد
كبرودة الشتاء في تلك المدينة التي تزورها لأول مرة
عندما شعرت بيد (هاني) تقبض على الحقيبة متوسطة الحجم التي كانت بيدها وهو يقول لها بود : دعيني أحملها عنكِ ، كان هذا شيئا أثار استغرابها قليلاً ، فقالت بنفسها :
ـ أين العصبية؟
لكنها سرعان ما تناست الأمر ظناً منها أن عصبيته ستنكشف عندما تعبث بأعصابه مستقبلاً ، كانت تريد أن تجرب كيف هو شعور اللعب بالنار التي حذرتها عمتها من الاحتراق بها ، قالت له مستفسرة :
ـ هل البيت بعيد عن هنا؟
-لا ليس كثيرا ، سنذهب له مشيا إن كنتِ موافقة ؟
-أريد عشاءاً والآن ، التفت نحوها مرتبكا :
ا ... الآن؟
-أجل .
ـ لكن ... سنصل للبيت في أقل من ربع ساعة وسأحضر لكِ الطعام ، ألا تستطيعين الصبر قليلاً؟
-أبدا ، أنا جائعة ولن أنتظرك لتحضره لي في بيتك أريده الآن ، لقد كان حقا متعجباً ومرتبكاً فالساعة الآن السادسة مساءً ولا توجد سوى المطاعم التي استأنفت افتتاحها للتو
-هل هناك من مشكلة؟

قالتها بسخرية واضحة ، نظر لها بتردد وأجاب :
ـ أجـ ... لا ، لا توجد أي مشكلة أعرف مطعماً قريباً من هنا
- جيد ..
كل ما فكر فيه (هاني) هو برودة هذه الطفلة التي أرعبته حقاً ، ذهبا إلى المطعم ، وقبل أن يقول لها أنهما وصلا سبقته بالكلام بانزعاج :
ـ أريد الذهاب للبيت لقد تعبت ، استغرب (هاني) من هذا التغير العجيب :
ـ لكننا نقف أمام باب المطعم ، أ لم تقولي أنكِ جائعة؟ لنتناول الطعام ثم نذهب للبيت
-لا أريد ، لا تكن لحوحاً أريد الذهاب للبيت
تنهد تنهيدة متعبة :
ـ حسنا يا (منال) كما تردين
عادا أدراجهما ليأخذها إلى بيتها الجديد ، في الطريق غلب الصمت بين الأخوين !
فحاول (هاني) فتح أي حديث مهما كان لذا قال :
ـ لقد أرسلت لي عمتي صورتكِ قبل عدة أيام لذا لم أجد صعوبة بالتعرف عليكِ
-أعرف
ابتلع ريقه بصعوبة ، فقد توقع ردا ألطف قليلاً :
ـ هل لديكِ أسئلة لي؟ لتعرفيني أكثر إن أردتِ
-أنت تتحدث كثيراً ، ثم أين صار بيتك هذا؟
نحن نمشي منذ ربع ساعة
ـ لكن الذهاب للمطعم قد أخرنا وجعله أبعد قليلاً لا تقلقي لم يبقَ الكثير

بعدها قرر السكوت الذي وجده أفضل من هجوم أخته عليه كلما نطق بكلمة ، بعد خمس دقائق لا أكثر وصلا للبيت الذي لم تعرف (منال) كيف ستكون حياتها الجديدة فيه فكرت في نفسها ، ربما أن عصبية أخيها لم تظهر لأنه لم يرد أن يريها لأحد من الناس خارجاً قالت في نفسها :

ـ سينتظرني الكثير هنا حتما

أطرقت برأسها للأسفل بحزن ، لاحظه (هاني) متسائلاً عن سببه لكنه فضل عدم سؤالها خشية انزعاجها

بعد أن دخلا قام وبشكل رسمي بتعريفها على غرف البيت ومكان نومها وكل ما تحتاجه

-سأعد طعام العشاء ، هل هناك شيء محدد تريدينه؟

-لا ، سآكل أي شيء

ـ حسنا ، تلك كانت إجابة غير متوقعة من قبلها بالنسبة لـ (هاني)

ذهب إلى المطبخ الواقع بابه على جهة جانبية من غرفة الجلوس التي بقيت (منال) جالسة فيها بهدوء نظرت قليلاً نحو البابين الذين رأتهما حول غرفة الجلوس ، أحدهما كان باب غرفة (هاني) التي يضع فيها كتبه وأغراضه الشخصية ، والثاني كان باب غرفة نومه ، أما غرفة نومها فقد أخبرها أنها تقع في الطابق الثاني

جذب نظرها بعض الشيء ذلك الدفتر الأزرق الذي رأته في غرفة (هاني) الأولى مفتوحة الباب

شيء ما جعلها ترغب بالعبث بأعصابه وقراءة ما في ذلك الدفتر عله ينزعج ، لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ليخرج من المطبخ حاملاً صحنين بهما طعام لم تتبين (منال) ما هو قال باسماً :

ـ لقد جهز الطعام ، أتمنى أن يعجبكِ
ـ نهضت بسرعة من على الأريكة وقالت بتململ : ـ لست جائعة ، سأذهب للنوم
-لكنكِ لم تتناولي شيئاً ، أ لستِ جائعة ولو قليلاً؟
-قلت لك لست جائعة ، يا إلهي ما كل هذا الإزعاج أنت لا تطاق ..!
قالت ذلك وأدارت ظهرها صاعدة السلم ثم توقفت في منتصفه وقالت دون أن تستدير نحو أخيها : ـ أحضر لي حقيبتي فهي ثقيلة ولا أستطيع حملها معي وضع الصحنين على منضدة صغيرة في منتصف الغرفة وقال :
ـ سآتي حالاً
ثم أسرع لحمل حقيبتها التي كانت موضوعة بجانب السلم ليصعد خلف أخته نحو غرفتها ..
في صباح اليوم التالي استيقظت من النوم وكل ما فكرت فيه هو إيجاد فرصة لقراءة ما في ذلك الدفتر الأزرق ، خرجت من غرفتها بهدوء وحذر شديدين نزلت السلم بدون إحداث أي صوت وهي تنظر نحو غرفة نومه وما زال بابها مغلقاً قالت في نفسها مبتسمة :
لابد أنه ما زال نائماً ، وقفت أمام الباب وفتحته بقليل من الارتباك وهي تلتفت نحو غرفته عدة مرات حتى لا يخرج وينتبه عليها دخلت ورأت الدفتر في غير مكانه الذي لاحظته فيه أمس ، فقد كان الليلة الماضية على المنضدة الخشبية الكبيرة أما الآن فهو على الكرسي الجلدي خلف المنضدة
سارت نحوه ببطء ، وما إن أوشكت على لمسه حتى جاءها صوت من الخلف طغت عليه نبرة الاستفهام : ـ ماذا تفعلين هنا؟

التفتت للوراء بفزع ، كان يقف عند الباب مرتديا بنطالاً أسوداً ولا يرتدي قميصاً ممسكاً بمنشفة يجفف بها شعره الأسود الذي تناثر على جبينه مغطياً جزءاً من عينيه الرماديتين ، يبدو أنه انتهى تواً من استحمامه

- لماذا أنتِ في غرفتي يا (منال)؟

تلعثمت في كلامها ، وتسلل الخوف لقلبها

عندها فقط عرفت قيمة نصيحة عمتها لقد ارتكبت خطأ فادحاً

-أ ... أ ... أنا فقط ... كنت ...

مال بجذعه جانباً قليلاً ليلمح دفتره خلفها ، ابتسم لها بود ، وسار ناحيتها دون تتحرك هي خطوة واحدة وقال :

- تريدين أن تعرفي ما يحتويه هذا الدفتر؟

هذا دفتر مذكراتي يا عزيزتي أرجو منكِ ألا تحاولي معرفة ما هو مكتوب فيه من فضلكِ وأرجو منكِ أيضا أن تخبريني قبل الدخول لهنا اتفقنا؟ أومأت برأسها موافقة على ما قاله

- سأذهب للعمل بعد نصف ساعة ، أعددت الفطور قبل استيقاظكِ بقليل ستجدينه على المائدة ، أعطاها ظهره مغادراً لغرفته الأخرى حتى يتحضر للذهاب لعمله ، إلا أن صوتاً استوقفه

- لماذا لم تغضب مني؟

قالت لي عمتي أنك عصبي ، لماذا لم تغضب مني؟ لم يجبها بل اكتفى بابتسامة لم ترها ، وغادر المكان لقد جالت أفكار كثيرة في بالها ، أفكار أزعجتها وبشدة ، هي لم تكن تذكر (هاني) بل لم تكن تذكر أحداً ، هذه الفتاة أصابها حادث سيارة قبل سنتين وفقدت على أثره ذاكرتها

لقد كان (هاني) بالنسبة لها أخاً لا وربما لن تعرفه مرت الساعات بثقل شديد وكل ما كانت تفعله (منال) هو الجلوس أمام شاشة التلفاز ومشاهدة الرسوم المتحركة ، في الساعة الثانية

ظهراً فتح باب البيت ليدخل (هاني) بملامح تنبض بنشاط الشباب دون تعب ، التفتت إليه فنظر لها مطولاً ثم قال بنبرته المعتادة :

ـ مساء الخير (منال) ، كيف كان يومكِ يا عزيزتي؟ آمل أنكِ لم تملّي بالبقاء هنا وحدكِ

-لا أبداً ، وجودك وعدمه سواءٌ بالنسبة لي!

احمرت وجنتاه من شدة الإحراج ، لقد كانت هذه صفعة قاسية تلقاها منها للتو

أغلق باب البيت وتوجه نحو غرفته ، عند بابها قال دون أن ينظر لأخته :

ـ آسف لأني لم أكن الأخ الذي تريدينه ، وآسف لأني قد لا أكون كذلك ثم دخل غرفته بصمت

ـ هناك شيء غريب في هذا الأخ ليس فيه شيء مما وصفته عمتي ، هل يعقل أن طول سفره غيره إلى هذا الحد؟ هكذا تساءلت الصغيرة في نفسها ..!

ها قد مرت ساعة كاملة دون أن يخرج من غرفته بدأت (منال) تنزعج من هذا الأمر، قالت بصوت مرتفع :

أنا جائعة أريد طعاماً ، لماذا بقيت في غرفتك يا عديم المسؤولية ؟

خرج مسرعاً وهو يتمتم بكلمات الاعتذار بصوت خافت ، لقد كان التعامل مع (منال) أصعب شيء ربما واجهه في حياته ، بعد مرور أسبوعين الحال كما هي ، هي تكاد تفقد المسكين صوابه من شدة تقلب آرائها ، وهو لا يعرف ما يفعل ليرضيها .

عصر يوم الجمعة ..

ـ (منال) ما رأيكِ أن نذهب معا إلى السوق ألا تريدين شراء ثياب جديدة؟

- بلى ، قالتها وعيونها مثبتة على شاشة التلفاز ابتسم بسعادة لأنه ظنها بداية جيدة أخيرا

- حسنا إذن اذهبي وغيري ثيابكِ لنغادروأنا سأفعل المثل .

بعد نصف ساعة ..

- (منال) أين أنتِ؟

نزلت السلم بسرعة ، ووقفت أمامه قائلة بنبرة حيرته حقاً :

اذهب لوحدك !

استغرب من كلامها :

- لكن لماذا؟ هل أزعجكِ شيء؟

-لا أريد الذهاب مع شخص مثلك ، أنا لا أحبك ولا أطيقك أبداً ..!

شعر أنه قد وصل حده من التحمل ...

لقد فقد أعصابه تماماً ، رفع يده اليمنى كمن يريد أن يوجه صفعة لها ، أغمضت عينيها بخوف

لكن لم يحصل شيء تنهد تنهيدة قوية ومتعبة وقال :

حسناً كما تريدين ، ربما نذهب في وقت لاحق استدار ودخل غرفته حيث ذلك الدفتر الأزرق الذي جعل (منال) واثقة بأنه قد ذهب ليكتب فيه عن الفتاة التي نغصت عليه عيشه ، لم يخرج من غرفته تلك حتى غروب الشمس .

في اليوم التالي ..

كان فضول (منال) قد وصل حدوده ولابد أن تعرف ماذا يكتب ؟!

بعد ذهابه لعمله دخلت غرفته بتردد كانت خائفة من أن يباغتها لكن لا لقد ذهب للعمل ولن يعود حتى المساء ، أمسكته بين يديها الصغيرتين وبدأت تتصفح عناوين الأيام التي كان (هاني) يضعها في بداية كل صفحة ، جذبها عنوان واحد فقط "وفاة أعز أصدقائي" بدأت تقرأ وهي تتخيل كل ما كان يحصل ذلك اليوم كمن عاشه

"في هذا اليوم تدهورت أحوال صديقي (هاني) كثيرا فمنذ دخوله للمستشفى لم يتحسن البتة ، لقد قلقت عليه لذا ذهبت لزيارته كما كنت أفعل كل يوم

نظر إلي وهو مستلقٍ في سريره لا يقوى على الحركة وقال :

أشعر أن ساعتي اقتربت يا (وائل)

-لا تقل هذا يا صديقي ستكون بخير ستشفى بإذن الله - ما يزيد مرضي هو ما فعلته بأختي يا (وائل)

لم أكن لها أخاً ، بل كنت وحشا فقط ... وحشاً حطم طفولتها

أتمنى أن أقول لها :

"آسف لأني لم أكن الأخ الذي تريدينه"

رفعت (منال) بصرها عن الصفحة وكررت بصدمة "آسف لأني لم أكن الأخ الذي تريدينه"

دمعت عيناها وهي تتمتم :

- من هو (وائل)؟

أ ليس أخي هو كاتب هذه المذكرات؟

أعادت النظر للدفتر وتابعت القراءة ، هي لم تفهم شيئا مما قرأته

"قال لي الطبيب أن ساعة (هاني) قد اقتربت فعلا ولم يعد أمامه الكثير من الوقت ، بل قدّر الأمر بـ ... أيام معدودات ، ذهبت إليه ولازمته طوال أيامه تلك ، لم أغادره أبداً ليل نهار وأنا أدعو له بالشفاء ، في مرة من المرات نظر إلي بحزن وألم حطماً قلبي تحطيماً سألته بمرارة :

- ما بك يا صديقي؟

هل يؤلمك شيء؟

هل تريد أن أحضر لك شيئاً؟

بدأ بالسعال والعرق يتصبب منه بشدة عندما أجاب وهو بهذه الحال المزرية :

أمنيتي ... إن ما أريده هو تحقيق أمنيتي يا (وائل) أريد أن أعود لها ، أريد أن أكون لها ما لم أكنه يوماً أريد أن أعوضها عن كل دناءتي وقسوتي السابقتين أريدها أن تعرف كيف هم الأخوة الحقيقيون ، لكن قاطعته قائلاً بتصميم ودون ذرة تردد :
سأحققها لك يا (هاني) لا تقلق بشأن هذا !
نظر إلي باستغراب وقال :
ـ لكن كيف ستفعل هذا؟
ـ أنت لم تزرهم منذ سنوات عديدة وربما لا أحد منهم يتذكر شكلك طالما أنت غادرتهم في فترة مراهقتك لن يميزني أحد إن قلت أني (هاني) لا أحد سيشك فنحن نملك ملامح متقاربة أو بالأحرى ألوانا متقاربة ، لا تقلق بهذا الشأن يا صاح ، بإمكانك أن تكون مرتاحا لأني سأذهب وأعتني بأختك الصغيرة سأفعل هذا لأجلك وسأفعل لها ما كنت تريد أن تفعله سأحقق لك أمنيتك فكن مطمئناً ، ابتسمت له وأنا أقول :
ـ سأكون أنت !
في اليوم التالي ، توفي صديقي العزيز (هاني) !
بدأت قطرات الدموع تبلل صفحات الدفتروهي تقلبه بعشوائية لا تدري ماذا تقصد فيها لم تصدق للتو ما قرأته ، ذلك الشخص ... ذلك الشخص الذي يزعم أنه شقيقها ليس سوى ... صديق!
بدا لها هذا منطقيا أكثر بعد وصف عمتها لما يفترض أن يكون عليه أخوها ، رمت الدفتر بعيدا عنها فضُرِب بالحائط ، وتمزقت منه ورقة واحدة تحركت بعيدة عن باقي الأوراق ساقطة وحدها أرضا في غير موضع الدفتر، تحركت بتنحنح نحو تلك الورقة ، والتقطتها من على الأرض
"يوم جديد في حياتي" أخذت تقرأ بانهيار وتعب "هذا هو أول يوم على أني (هاني) بالنسبة لـ (منال) هذه الفتاة رائعة لا عجب

أن يشعر صديقي بالندم لتجاهله إياها لم تكن لطيفة معي لكني أقدر شعورها وأقدر كرهها هذا نحوي ... نحو (هاني) سأكون صبوراً معها ، وسأحتمل سأجعلها سعيدة كما كان صديقي سيفعل لو كان هنا الآن ، ليس لدي الكثير لأكتبه لكني أتمنى أن تمتلئ صفحات هذا الدفتر بالبهجة التي ستزين قلب تلك الصغيرة الحلوة " ضغطت على الورقة بشدة حتى تمزق شيء من حافتها ، عندها تذكرت ما حصل أمس ، أسرعت نحو دفتره لترى ماذا كتب عن "بهجتها" قلبت الصفحات بسرعة نحو الأخيرة المكتوب بها "إنها حقا بريئة" "طلبت منها اليوم أن نذهب إلى السوق لأشتري لها ثياباً إن كانت تريد فوافقت ثم رفضت هكذا فجأة ودون سبب قالت كلاماً قاسياً جدا لست معتاداً على سماعه من أحد فأوشكت أن أصفعها ، لكن حمدا لله أني لم أفعل كيف لي أن أصفع طفلة مثلها!

رغم كل شيء تظل بريئة بنظري ، فهي تفعل كل هذا عناداً لتريني أنها تكرهني على كل شيء سبق وفعلته لها ، بدأت أشعر أنها أختي حقاً إنها فعلا طفلة ككل الأطفال ببراءتهم وتصرفاتهم العنيدة تلك سوف أحتمل"

كانت (منال) قد انتبهت على الوقت ، أوشك أخوها المزعوم على الوصول طوت الدفتر بسرعة ووضعته في مكانه وغادرت المكان ، بعد أقل من نصف ساعة عاد (هاني) ، الذي لم يلحظ شيئا غير طبيعي أبداً

-أظن أنها في غرفتها قالها وهو يخرج من غرفته ليناديها

- (منال) ... عزيزتي تعالي لنتناول الطعام ، كانت تنظر إليه من بين نقوش حافة السلم دون أن يلحظها حتى صرخت بقوة في وجهه :

- دعني وشأني يا كاذب ... لا أريد العيش معك بعد الآن

- لـــ ... لكن ، ماذا حصل يا أختي
تابعت صراخها بغضب والدموع تنهمر من عينيها اللتين غلبت عليهما البراءة حقا :
- أنا لست أختك يا ... (وائل) !
اتسعت مقلتا عينيه مما سمعه وقال بصدمة :
- هل ... هل قرأت مذكراتي يا (منال)؟
-أجل فعلت !
لقد قرأتها وعرفت حقيقتك أيها المخادع
- لكنكِ لا تفهمين ، لقد فعلت هذا لأجل صديقي ...! لأجلكما معاً ، أرجوكِ افهمي الأمر فأنا لا أريد أذيتكِ بفعلتي هذه
- لم تقصر، قلت لك أني أكرهك ما الذي يجعلك تعتقد أني سأغير نظرتي هذه لك؟
لـ (هاني) أو لـ (وائل) ؟
أسرع باتجاهها وصعد السلم حتى وصل إليها أخذها بقوة بين ذراعيه وهو يقول بألم :
- أرجوكِ أعطيني فرصة ، أعدكِ أني سأكون صادقاً معكِ بكل شيء منذ اليوم فرصة واحدة أرجوكِ إنها أمنية (هاني) لا ... بل هذا ما أريد أنا أن أفعله
أنا آسف و (هاني) آسف لكل ما فعله لكِ حتى لو لم تتذكريه يا (منال) أقسم لكِ أني لن أكذب أو أخفي عنكِ شيئاً بعد الآن ، لذا أرجوكِ أرجوكِ دعينا نكن أخوين حقيقيين
بادلته عناقه بشكل لم يتوقعه وتبلل قميصه الأسود بدموعها التي انهمرت دون انقطاع
- أنا ... أنا أريد شخصا يحبني يا (هاني) أريد أن أحظى بعائلة تذكرني بما نسيته ... تعوضني عما نسيته ، أريدك أن تكون أنت ولا أحد آخر أريد أن تكون أخي فقط ، صمتت قليلا ثم أردفت :

ـ لكن لا تعتقد أن لؤمي هذا سيزول ، لن أقلل منه ولو حتى بمقدار ذرة تراب!

ضحك ضحكة عالية وهو يقول :

ـ لا تقلقي بشأن هذا يا عزيزتي أنتِ أيضا أريدكِ أن تكوني كما أنتِ من اليوم سنعيش سوية كأخ و.. أخته

ـ لست غاضبة منك فعلاً فقد كنت لطيفاً لكني غضبت من كذبك ... تعلم كيف أن الكل يقول أن الكذب شيء سيء جداً

انحنى أمامها كخادم أمام ملكته المسيطرة وهو يردد عفوكِ يا مولاتي ، لن يتكرر هذا الشيء السيئ بعد الآن

رفعت نظرها نحو عينيه وسألت سؤالاً بكل براءة : هل أناديك (هاني) أم (وائل)؟

-امممممم ... أظن أني أفضل (هاني) يا عزيزتي ابتسمت له لأول مرة :

ـ حسنا يا ... أخي

صدفة وقدر ممسوخ

صباح عادي لفتاة عادية مثلي ذاهبة إلى جامعتها لكن اليوم بحد ذاته لم يكن عادياً كان هناك مهرجان في جامعتنا وكنت أنا المسؤولة عنه كان علي الذهاب باكراً للقيام بالترتيبات الأخيرة إنه أول عمل مهم لي في هذه الجامعة منذ دخولي لها كنت أخشى أن أتخرج منها دون القيام بشيء يجعل أحداً يتذكرني لكن الآن ...! لم يعد هناك من لا يعرف (ميادة) . استقليت الحافلة التي لطالما اعتدت على تسميتها باص المدرسة العجيب لمظهرها المضحك فهي كانت أشبه بحافلات المدارس لا الجامعات للونها الأصفر وصوتها الغريب الدال على القدم فهي حقاً توحي بأنها ستتطاير في أي لحظة إلى أشلاءٍ متناثرة هنا وهناك ، بعد أقل من ربع ساعة وصلنا للجامعة كان يجب أن أسرع بعدها لأصل إلى ساحة العرض الرئيسية الواقعة في منتصف الجامعة لأنهي مع زملائي آخر ما بقي من ترتيبات قبل بدء المهرجان إنه مهرجان أدبي فني بسيط أشبه بمسابقة للقصص والكتابات الأدبية الأخرى وكذلك الرسم بأنواعه كنت متحمسة له جداً ، لكني لم أكن أتخيل أبداً أن هذا اليوم سيكون منعطفاً كبيراً في حياتي بأكملها

مرّ الوقت بسرعة دون أن أشعر به وأنا أرى الناس بدؤوا بالحضور وملء المقاعد المخصصة لهم أمام المنصة حيث كان يجب علي أن أصعد وألقي كلمة البدء للمهرجان ، كان علي أولاً أن أقوم بجمع الكتابات واللوحات المشاركة من الحضور بأكملهم وهذا بحد ذاته كان مرهقاً دون الحاجة للمزيد من أتعاب هذا اليوم الغريب ، كنت خارجة من باب أقسام إحدى الكليات في الجامعة

حاملة صندوق به أزهار زينة لإكمال تزيين المنصة ، فجأة !
سمعت صوت صراخ من فتيات يركضن بعشوائية كمن يهرب من شيء ما لن أنكر أبداً أني ارتعبت في البداية خصوصاً بعد أن رأيت أن الفتيان كذلك كانوا يبتعدون عن ذلك الشيء وقتها ساورني الفضول حقا لأعرف ممَ يهربون! رأيت كتلة صغيرة تجري نحوي دققت النظر بذلك الوجه لترتعد فرائصي مما رأيته ، لم أخف منه لكنها كانت الصدمة لقد كان مصدر الرعب هذا مجرد طفل صغير وجهه مغطى بالدماء ! وقف أمامي والدموع تنهمر من عينيه مختلطة مع دمه المتساقط على الأرض ، أفلت الصندوق على الأرض وجلست على ركبتي أمامه أنظر له بنظرة يمكن أن تصفوها بالإشفاق على حاله لا أعرف كيف أصف شعوري ، ولا كيف كانت تبدو ملامحي وأنا أنظر له آنذاك كنت حقاً مشدوهة وكل ما استطعت أن أفعله هو تقريب يدي من وجهه لأمسح القليل من الدماء التي غطت عينيه ، وأسأله بصوت متقطع :

- مـ ... من الذي فعل بك ... كـل هذا؟

ذلك الطفل فاجأني حينما ارتمى بين أحضاني وزاد بكاؤه أضعافاً ، كنت مستعدة لفعل أي شيء له كي يتوقف عن النحيب الذي فطر قلبي متجاهلة نظرات الطلاب المستغربة التي تنشدني كي أبتعد عن هذا الذي تعالت أصواتهم بوصفه ... مسخاً!

أمسكت بيديه الملطختين بالدماء وأخذته نحو أقرب صنبور مياه كي أغسل له وجهه ، لم يتوقف عن البكاء ، وكل ما كان يشغل بالي وأنا أسمع أنينه هو أي وحش يمكن أن يفعل به هذا؟ لأكون صريحة معكم كنت مستغربة وخائبة الأمل بردة فعل الطلاب في الجامعة تجاه هذا الطفل ، أعتقد أنهم حكموا عليه من مظهره والشكل الذي كان عليه وهو يجري في ساحة العرض صارخاً من

الألم ، كان يفترض بتلك الصرخات أن توقظ إنسانيتهم ولو بمقدار ضئيل !
قلت في لنفسي لا بأس فلأتجاهل الأمر الآن وأحاول فعل شيء ما لهذا الطفل المسكين بكاؤه قطـّع قلبي مسحت وجهه برفق بالماء كي أنظفه من تلك البقع الحمراء ، هذه أول مرة يحصل شيء كهذا معي
كان قد هدأ قليلا وتوقف عن البكاء لكن تنفسه سريع جدا ويشهق بقوة من شدة الألم ، دموعي كانت محبوسة بالكاد فلم أرد البكاء أمامه كي لا يفعل هو بدا الطفل في الرابعة من عمره لكن لم أعرف هل سيجيبني لو سألته من أو ما السبب فيما حل به !؟ حاولت التخفيف عنه فضممته إلى صدري وأنا أربت على ظهره تارة وأمسح على شعره تارة أخرى ليهدأ ويرتاح ، تناسيت أمر المهرجان فهو لم يعد بتلك الأهمية البتة أمسكته من ذراعه برفق وأخذته إلى الكافيتريا لأشتري له عصيرا فقد بدت شفتاه متيبستان ، وأنا أسير مع هذا الطفل البريء الذي لم أعد أسمع له صوتا غير تنفسه ، تذكرت أمراً لا أعرف كيف ذهب من بالي توقفت فجأة لأخاطبه بقلق :
- عزيزي ، أين هما والداك؟
لا يعقل أنك أتيت إلى هنا وحدك ، انحنيت لأصبح بمستواه حتى أحاول فهم ما قد يقوله لكنه لم يقل أي شيء !
لم أرد الإلحاح عليه فتركت الموضوع لإيماني بان كل شيء بوقته لابد أن يظهر، من جهة أخرى أشعر أن عروقي على وشك أن تتيبس بسبب هؤلاء الأغبياء الذين يحدقون بي كما لو أنني أسير مع "شيء" وليس ما يشبههم ، بدأ الكثير منهم بالصراخ بل ووصلوا بحقارتهم إلى رمي علب العصائر الفارغة والمياه عليه بكل وحشية وهم يقولون :

ـ غادر المكان أيها المسخ ، لا نريد وجوها بشعة تفسد هذا اليوم
ـهيه أنتم ! ما رأيكم أن تخرسوا؟
هذا أفضل من كلامكم الذي لا فائدة منه ، هذا الطفل معي وأنا التي تقرر إن كان سيذهب أو يبقى اهتموا بشؤونكم الخاصة فقط ..!
يا إلهي كم كنت فظة بكلامي لكني فعلاً لا أشعر بأي ندم مطلقا ، بل شعرت بالارتياح خصوصاً بعد أن رأيت تلك البسمة الشبحية على وجه الطفل
ـما ... ما
نظرت بسرعة إلى حيث كان ينظر وأنا أقول بهلع : ـ أمك؟ أين هي؟ أين هي يا صغيري؟
أشار بيده المرتجفة نحو امرأة كانت تقف مع رجل بدا زوجها على بعد مسافة ليست بالبعيدة عنا أحكمت إمساك يده وأنا أسير به نحو والديه بفرح وقفت أمامهما لأقول ببهجة :
ـ صباح الخير سيدي ، سيدتي عذرا على إزعاجكما لكن ، هذا طفلكما؟ لقد رأيته ضائعا هنا و ...
ـلا ليس طفلنا ، كم كان جواب هذه المرأة بارداً خاب أملي إذ ظننت أن هذا الطفل سيعود لبيته قريباً عليّ أن أبحث عن وا ... ما الذي يجري هنا؟
هذا المسكين جرى مسرعا نحو المرأة ، ألم تقل أنها ليست والدته؟ هل يعقل أنه أخطأ أم أنها كذبت؟ تمسك بقوة بقدمي "والديه" وهو يجهش بالبكاء صارخا :
ـ ما ... ما ، با ... با ..!
كنت أوشك على رسم خيال ابتسامة على شفتي لولا تلك الركلة القوية التي أطاحت بالطفل أرضا بجانبي ماسكا معدته ويصرخ بكل قوته من الألم هذا ... هذا فاق كل قدرة احتمال لدي

-أغرب عن وجوهنا أيها القبيح لمَ لا تفهم أننا لسنا والديك؟ لسنا هما ..
قال الرجل هذه العبارات بصوت مرتفع جعل الكل حولنا يقفون بفضول ليروا ما قد يحصل بعد ما زلت أتساءل ذلك الصراخ ، ألم يوقظ فيهم إنسانيتهم النائمة؟
رأيته يقترب نحو الطفل كمن يريد ضربه أكثر من ضربة واحدة فقط تباً له ألم يكتفِ؟
تحركت من مكاني وتلفت يميناً ويساراً بهلع وخوف من أن يصيبه مكروه ما ، فلمحتها مرمية هناك كم أحب الصدف الجميلة التي ترسل لنا أشياءً في أحلك الظروف لتبدو كمخرج من ورطة أو مصيبة قد تحل علينا جريت مسرعة نحو تلك العصا الخشبية الكبيرة وأمسكتها ، عدت بأقصى سرعتي إلى ذلك الرجل الذي رفع قدمه ليركله مرة أخرى فصرخت بوجهه وأنا أحرك عصاي نحوه :
- ابتعد عنه أيها المتوحش ..
بكل ما أوتيت من قوة ضربته على معدته جاعلة منه كتلة جاثية على الأرض ، شعرت بنشوة الانتصار وقتها وأنا أصرخ بوجهه هو وزوجته بل وبوجه الجميع :
- إن تجرأ أحد على نعته بالمسخ أو المساس به بأي أذى فلن ترحمه هذه العصا أبداً وكذلك أنا رفعت صوتي لأكمل : أبداً.
××××××××××××××××××××××××××
نحن الآن نسير في حديقة الحيوانات لأنني أردت أن أمحو أثر هذا اليوم من ذاكرته تماماً
تباً لأمثال هؤلاء من البشر ، وتباً لمهرجان يضم نفوساً متعفنة ، لست أريد شيئاً من هذا طالما هناك مخلوق صغير جسد البراءة بحد ذاتها خصوصاً عندما قالها لي ... عندما قال :

ـ ماما ..

همست وأنا أحدق به باسمة :

ـ سأفاجئ أختي بفرد جديد في بيتنا منذ هذا اليوم 2010/5/25

وما زلت أتساءل في دفتر مذكراتي هل كانا والديه أم لا؟

لقد كنت أميراً

ينظر إلى الناس عبر تلك النافذة ، الناس بدورهم ينظرون إليه ... الأطفال يشيرون نحوه بأصابعهم ، يبتسم الكبار بلطف وهم يحدقون به

جاءت فتاتان ... إحداهما طفلة صغيرة والثانية فتاة مراهقة ، ألصقت الصغيرة ذراعيها بالنافذة وقربت وجهها منها ثم قالت بصوت طفولي :

ـ أنظري يا أمل إلى هذا الببغاء .. أليس رائعا؟ نظرت أمل عبر نافذة المتجر لترى ذلك الببغاء الموضوع في قفص .. أجابت :

ـ إنه كذلك يا لجين ، رائع بالفعل

بدأت تقفز تلك الصغيرة بمرح وهي تقول :

ـ إذن هيا فلندخل المتجر ونسأل عن ثمنه

أجابتها أمل بهدوء وهي مبتسمة :

ـ هيا بنا

رنّ ذلك الجرس الموضوع فوق الباب ليعلن عن دخول الفتاتين إلى المتجر، كان متجراً لبيع الحيوانات أرانب ، سناجب ، أفاعي ، عناكب ،طيور وغيرها الكثير من الحيوانات ..

جاء البائع نحو الفتاتين ، رجل كان يبدو في الخمسين من عمره قال لها بكل هدوء :

ـ بماذا أستطيع مساعدتكما آنستاي الصغيرتين؟ أجابته أمل قائلة :

ـ مرحبا سيدي ، نريد أن نسأل عن ثمن الببغاء الموضوع قرب النافذة

حرّك البائع رأسه يمنة ويسرة قائلاً :

ـ أعذراني ، هذا الببغاء ليس للبيع !

سمعت الصغيرة لجين ، فبدأت تقفز في أنحاء المتجر ، تصرخ والدموع تنهمر من عينيها :

ـ أريد هذا الببغاء ... أنا أريده

رمقتها أمل بنظرات حادة وقالت :

ـ يكفي يا لجين .

قال أنه ليس للبيع لذا ابحثي في المتجر عن ببغاء أخر، استمرت لجين بالصراخ وهي تقول :

ـ لا، لا ، لا ... لا أريد غير هذا الببغاء

أزعجت الجميع بصراخها ، في نهاية الأمر قال لها البائع بلطف :

ـ هذا الببغاء ليس كما تظنين إنه أمير!

توقفت لجين عن البكاء ، فقد شدها كلام البائع لذا قالت باستغراب :

ـ أمير؟!

حرّك البائع رأسه للأعلى والأسفل مؤكدا ما قاله وأردف :

ـ أجل أمير ، هل تريدين أن تعرفي كيف أصبح ببغاءاً؟

أومأت لجين برأسها إيجاباً وقالت بفضول :

ـ أجل أريد

تابع البائع كلامه :

ـ حسنا إذن . تعالي غدا لتعرفي

نظرت لجين إلى أمل وقالت بهدوء :

ـ هل ... هل نستطيع المجيء غداً؟

قالت أمل بلطف وهي تبتسم :
ـ بالتأكيد يا عزيزتي
جرت لجين مسرعة نحو الببغاء ، وقفت أمامه وقالت بمرح :
ـ انتظرنا أيها الأمير ، سنأتي غدا لزيارتك
بعد أن قالت هذا الكلام عادت للخلف إلى حيث تقف أمل أمسكت بيدها وسارتا بهدوء نحو باب المتجر لوحت لجين للببغاء مودعة إياه ، خرجتا وأغلقتا الباب خلفهما
سار البائع ببطء نحو الببغاء
وقال له :
ـ ما رأيك أيها الأمير؟ هل أخبرهما بقصتك؟
رفع ذلك الببغاء رأسه وقال بصوتٍ بشري بعيد كل البعد عن صوت ببغاء :
ـ أجل أخبرهما ، تلك الصغيرة لجين أنا متشوق لأعرف هل ستصدق أم لا؟
ابتسم البائع وقال :
ـ تبدو سعيداً ، أخيرا عثرت على شخص يهتم لأمرك ، قالها وهو متوجه نحو باب متجره ، وقف بعد عدة خطوات ليمد يده اليمنى على زجاجه معلقاً لافتة (مغلق) .
في اليوم التالي الساعة التاسعة صباحاً لجين :
ـ أريد أن أذهب الآن
أمل :
ـ قلت لا يعني لا ، ما زال الوقت باكراً
قالتها بقوة صارخة بوجه تلك الطفلة الحاملة لأنقى معاني الطفولة ، تعلقت الدمعة بين جفنيها وليس لها سوى أن تنهمر بحرقة فهذا هو مصيرها الحتمي بعد صراخ أمل في وجهها ،

شعرت بخطئها ، أغمضت عينيها ، أخذت نفسا عميقا ثم أردفت بهدوء :

ـ أنا آسفة ، ما قصدته هو أن الببغاء قد يكون نائماً الآن ، مسحت دموعها بأطراف أناملها ، عقدت حاجبيها وقالت :

ـ لا تقولي ببغاء بل قولي أمير ، إنه أمير

أمل :

ـ حسناً ، حسناً كما تريدين ، إنه أمير

(لقد صدقت لجين ما قاله صاحب المتجر) رددت أمل ذلك مع نفسها وهي تنظر للجين المتلهفة من أجل الذهاب إلى متجر الحيوانات مرة أخرى

الساعة 10:35 صباحاً وقفت أمل ذات الخامسة عشر ربيعا أمام مرآة غرفتها أمل :

ـ ترى ، هل هذه الثياب ملائمة؟

سألت هذا السؤال وهي تدور حول نفسها لتجيب توقفت لوهلة ، قربت وجهها من المرآة وبدأت التحديق ببشرتها البيضاء لتقول بانزعاج :

ـ تباً ، بشرتي لن تحتمل الخروج تحت الشمس كل يوم ، طوقت شعرها البني الطويل المماثل للون عينيها بيديها ورفعته للأعلى كذيل الفرس مما أعطى وجهها المزيد من الإشراق والجمال

لجين :

ـ هيا يا أمل لنذهب

تسلل هذا الصوت الناعم إلى مسامعها ، رسمت ابتسامة لطيفة على محياها وردت :

ـ قادمة

سارت لجين ذات الخمسة أعوام أمام أختها في الشارع تقفز وتتحرك في كل مكان وهي تقول بلهفة ـ أخيراً سأعرف كيف أصبح الأمير طيراً

ـ هل أنتِ متحمسة مثلي؟

نظرت لها بطرف عينها وأجابت :

ـ وهل أبدو لكِ طفلة تصدق مثل هذه الأكاذيب؟ الساذجون وحدهم يصدقون ذلك، لم تكترث الصغيرة بما قالته أمل بل اكتفت باللعب بخصلات شعرها الأسود المنسدلة على كتفيها ببراءة

الساعة 10:55 صباحاً وصلت الأختان إلى متجر الحيوانات ، تقدمت لجين نحو الباب وفتحته تبعتها أمل بكل هدوء ، جرت الصغيرة باتجاه الببغاء الموضوع يمين المتجر على قطعة خشبية مثبته بقاعدة طويلة وقفت أمامه ، انحنت له قليلاً ممسكة بفستانها الأزرق من جانبيه لترفعه بضع مليمترات محيية الببغاء بشيء من اللطف والرقة قائلة :

ـ مرحباً أيها الأمير

البائع :

ـ أوه ، الآنستان الصغيرتان

استدارت المعنيتان إلى محدثهما لتبدأ أمل بالكلام فقالت بأدب :

ـ مرحبا سيدي ، لقد أتيت وشقيقتي بالأمس إن كنت تذكر هي تأثرت كثيراً بما قلته عن الببغاء لذا تريد أن تعرف القصة

سار بخطى ثقيلة إلى حيث تقف ، قرب وجهه من وجهها وقال بشك :

ـ يبدو أنكِ لم تصدقي ما قلته ، أليس كذلك؟

أمل :

ـ طبعا لا ! يستحيل أن يكون كلامك صحيحا إذ لا وجود لمثل هذه الخرافات

اعتدل في وقفته وحوّل بصره نحو لجين الواقفة تحدق بالببغاء ، قال بنبرة لطيفة :

ـ هل ما زلتِ تريدين معرفة قصة هذا الببغاء يا صغيرتي؟

حركت المعنية رأسها وأجابت بلهفة :

ـ بالتأكيد

البائع :

ـ انتظرا هنا قليلاً

قالها وهمّ بالاستدارة متوجها نحو باب يقع نهاية المتجر ، دخل عبره بصمت ولم يمضِ وقت طويل حتى خرج منها حاملاً بكلتا يديهِ كأسين ذهبيتين بقاعدة طويلة بعض الشيء مرصعين بجواهر حمراء اللون وكأنها كؤوس ملكية ، سار ببطء نحو الفتاتين اللتين نظرتا له بفضول ، مد يديه ليناولهما الكأسين ، حدقت أمل بذلك السائل زهري اللون أشبه بعصير الفراولة إلا أنه احتوى رائحة غريبة ، ظلت تحدق بهِ فترة من الوقت

ـ هل تستطيع شربه؟

قطع حبل أفكارها صوته المطمئن وهو يقول :

ـ اشربيه يا ابنتي وسوف تعرفين القصة

كانت تمسك الكأس من قاعدته بيدها اليسرى لم ترفع بصرها عن ذلك السائل عندما أجابت بشك :

ـ عذرا يا عم ، لا نستطيع أخذ شيء من غريب البائع :

ـ هههه ، معكِ حق سأشرب جزءا منه لتري أنه آمن ، حمل الكأس من يدها بهدوء قربه من فمه وأخذ منه رشفة صغيرة و ... لم يحصل شيء ، أعاده ليد أمل التي أزيح عنها هذا الشك ليحل محله سؤال قالته بشيء من الاستغراب :

ـ إن لم يحصل لك شيء ، فما الذي سيحصل لنا إن شربناه؟ أعني ماذا سيحدثه من فرق؟

البائع :
ـ اشربيه وستعرفين !
هذا كان جوابه الذي صاغه بكل اختصار وهدوء اقتربت من شقيقتها لجين وقالت بلطف :
ـ هيا يا عزيزتي ، حان الوقت لتعرفي القصة
الساعة 11:15 صباحاً رفعت يدها المرتجفة وشربت السائل الزهري كله كذلك فعلت الصغيرة لجين ، لم تمضِ سوى عدة ثوانٍ حتى سقطت الفتاتان على الأرض مغمى عليهما !!
فتحت أمل عينيها على صوت لجين التي كانت تهزها وهي تبكي قائلةً :
ـ أختي ، أختي استيقظي أرجوكِ؟
ـ ماذا فعل بكِ ذلك الشرير؟
أمل :
ـ أنا بخير عزيزتي كفي عن البكاء
اتكأت على يديها لتنهض من على الأرض ، نظرت حولها لتقول بتساؤل :
ـ ترى ، أين نحن الآن؟
لم يكن هناك أثر للمدينة ولا لمتجر الحيوانات الذي كانتا فيه ! كأنه عالم مختلف ، بسهول خضراء ممتدة على طول البصر ، أشجار عالية بشكل حلقة ضخمة يتوسطها قصر كبير كأنه من العصور الوسطى لجين :
ـ أختي ، أشعر بالخوف ، أين نحن؟
أمسكت بذراع الصغيرة اليمنى المرتجفة وضغطت عليها لتدفئها ، قالت بهدوء لتطمئنها :
ـ لا تخافي يا عزيزتي كل شيء سيكون على ما يرام فأنا معكِ
صمتت قليلاً وقد تعلقت نظراتها المستغربة بذلك القصر

أمل :
ـ لجين ما رأيكِ أن ندخل ذلك القصر؟
لربما نجد الإجابات على تساؤلاتنا هناك
لجين :
ـ أي تساؤلات؟
نطقت الصغيرة برقة طارحة هذا السؤال بكل براءة ضربت جبينها بيدها قائلة بشيء من الحماقة :
ـ لمَ أتعب نفسي بتكليمكِ؟
إنما قصدت تساؤلاتي أنا عن هذا المكان وكيف وصلنا إليه ، وتساؤلاتكِ عن ذلك الببغاء
نظرت بحدة ممزوجة بالطفولة إلى أختها لتقول بغضب مصطنع :
ـ أميـــــر ، إنه أمير كم مرة عليّ أن أرددها؟
صرخت بضيق :
ـ كفى ، لن أقول ببغاء أبداً ، والآن هيا بنا إلى ذلك القصر علنا نلتقي شخصا يخبرنا أين نحن ، أومأت الصغيرة برأسها منصاعة لكلام شقيقتها كانصياع الرعية لملكهم ، سارت الفتاتان نحو القصر الذي غلب عليهِ اللون الأبيض بشكل مثلث في كل زاوية هناك برج طويل ينتهي بما يشبه المظلة بلون أسود وكلما اقتربتا أكثر من القصر ظهر من خلفه قرية بسيطة بعض الشيء ، بدا أنها مقسومة لنصفين يفصل بينهما نهر صغير، بعد سير ليس بشاق وصلتا إلى بوابة القصر التي كانت عبارة عن بابين حديديين ضخمين مفتوحين على مصراعيهما وعلى كل جانب يقف حارس مسلح برمح وترس ، أبطأت أمل من سيرها وكذلك أختها حتى توقفتا بتوتر أمام أحد الحارسين قالت أمل :
ـ عفواً ، سيدي هل نستطيع دخول القصر؟
نعدكم أننا لن نسبب المتاعب

لكن ، لا جواب لم يبد الحارسان أي ردة فعل بل لم ينظرا للفتاتين حتى قالت لجين :

ـ سيدي ، ألم تسمع ما قالته أختي؟

نريد أن ندخل إلى القصر

أمل :

ـ اهدئي يا لجين ، أظن أنهما لا يستطيعان رؤيتنا قالتها وهي تحرك كفها الأيمن أمام وجه أحدهما لتتأكد من ذلك

أمل :

ـ نحن كالأشباح بالنسبة لهما ، لكن كيف؟

لجين :

ـ كالأشباح؟

أمل :

ـ أجل ، هل يعقل أن هذا هو مفعول ذلك الشراب الغريب؟

علينا بالدخول فالبقاء هنا والتساؤل فقط لن ينفعنا بشيء .. هيا يا لجين ، اقتحمت الفتاتان ذلك القصر بخطى مترددة ، ظلت أمل تتحدث إلى نفسها بصوت خافت وهي تنظر إلى السماء الزرقاء التي بدت كسقف بديع يغلف حديقة القصر الضخمة

أمل :

ـ إذا لم يكن هناك من يرانا أو يسمعنا فكيف إذن سنجد من يخبرنا بالذي يجري أو كيف نعود إلى المتجر؟

لجين :

ـ أين الأمير؟ أريد أن أراه

أمل :

ـ سنفعل ، كلانا سنفعل أو هذا ما آمله

انتهت تلك الحديقة عند سلم رخامي يصل في أعلاه إلى باب ذهبي بدا موصداً بإحكام ، أطلقت تنهيدة قوية وهي تقول :

ـ الباب مغلق كيف سندخل إذاً؟
لجين :
ـ ألسنا أشباح؟
أمل :
ـبلى ، وماذا في ذلك؟
لجين :
ـ الأشباح دائما يخترقون الجدران والأبواب دون عناء ، هذا ما يظهر في التلفاز
حدقت بالصغيرة قليلاً ثم قالت باندهاش :
ـ أنتِ على حق ما كل هذا الذكاء؟
خيالكِ الواسع نفعنا أخيراً
قربت يدها من الباب محاولةً أن تلمسه لكنها لم تستطع ، حصل ما قالته لجين تماماً ، اخترقت يدها الباب كالأطياف تبعها سائر جسدها ، كذلك فعلت الصغيرة
أمل :
ـ ما كل هذا؟
لجين :
ـ يبدو الجميع مشغولاً ، هل للأمر علاقة بالأمير؟ أمل :
ـ الأمير ، الأمير ، الأمير
لمَ يجب أن يتعلق كل شيء بالأمير؟
إيجاد طريقة للعودة أهم من قصة الأمير هذه
لجين :
ـ لكن الأمر حقيقي
أمل :
ـ لقد سئمت منكِ ومن الأمير
لجين :

ـ أنتِ أخت قاسية

أمل :

ـ يا إلهي ، اسمعي يا عزيزتي بما أن البحث عن طريق العودة شيء لم يعجبكِ ، والبحث عن أميركِ لم يعجبني إذن فلنبحث عن الاثنين ما رأيكِ؟

كلانا نبحث عن كلا الأمرين

لجين :

ـ موافقة

أمل :

ـ حمداً لله

بعد هذا الحديث نظرت أمل إلى الفوضى التي كانت تملأ القصر، الجميع كان في حالة استنفار تام ،الخدم يتراكضون في كل الاتجاهات وصوت إغلاق البوابة الخارجية تسلل إلى مسامعها

لجين :

ـ ما الذي يجري يا أختي؟

أمل :

ـ يبدو أنها مشكلة ما

لجين :

ـ بسببنا؟

أمل :

ـ بالطبع لا ، الأمر مختلف حتما ، ولا أظنه يعنينا !

ـ هل هو بخير؟ لم يقترب أحد منه أليس كذلك؟

ـ أجل يا سيدي لكنه غاضب ، غاضب جداً !

ـ المهم أنه بخير، لا تنسوا حراسة باب غرفته جيداً لا أريد لأي شخص أن يقترب بدون علمي

كان هذا الكلام صادراً من شخص بدت عليه الهيبة والقوة ، شخص كان واضحاً أنه حاكم هذا القصر بل والمدينة أيضا

أمل :

ـ الحاكم وخدمه يحرصون على إبقاء شخص ما حبيساً في غرفته ، هل يعقل أن يكون الأمير؟

لجين :

ـ الأمير؟ إنه أب قاسٍ ليحبس ولده أليس كذلك؟

أمل :

ـ ليس بالضرورة ، ربما هو مشاغب ويسبب المتاعب للجميع ، لو أني حبستكِ مثلاً فلن ينعتني أحد بالقاسية بل سيشكرونني

لجين :

ـ أنا لست مشاغبة

أمل :

ـ لنغير الموضوع ..

ـ ما رأيكِ أن ندخل لتلك الغرفة ونرى من بداخلها؟ لجين :

ـ أليست مقفلة؟

أمل :

ـ ألسنا أشباحاً؟

بدأتا بأولى خطواتهما نحو تلك الغرفة التي كان بابها أسوداً ، كانت قدم لجين ترتجف من الخوف وهي تتقدم خلف أمل حتى دخلتا غرفة كبيرة

سرير أسود يتوسطها ، مرآة طويلة على يسارها نافذة بستائر سوداء مغلقة على يمينها

رفعت أمل حاجبيها من الدهشة وهي تقول :

ـ هل بهذه الغرفة جنازة ما؟

إنها كئيبة ، أي بشري عديم مشاعر يستطيع العيش هنا؟

لجين :
ـ شخص يقتل وقته بالبكاء؟
أمل :
ـ محاولة جيدة لكن هكذا شخص سيكون مرهف المشاعر يا عزيزتي ، وليس العكس
لجين :
ـ لا ، ليس هذا ما عنيته بل أنظري إلى السريرهناك شخص يبكي مستلقٍ عليه ، حدقت المعنية بالسرير قليلا لترى ذلك الشخص وتسمع صوت بكائه الخافت اقتربت من السرير أكثر بنية رؤية وجه ذلك الباكي كان فتىً بدا وكأنه يكبرها بقليل ، يمسك بقوة بلحاف مضجعه وهو يبكي بحرقة تساقطت دموعه الغزيرة على سريره كما يتساقط مطر الشتاء ليغرق السهول الخضراء قال بصوت متقطع :
ـ أنا أكرههم ، أكرههم كما يكرهونني
صمت للحظات لم تكد أمل تدركها حتى تابع قائلاً بنبرته الحزينة :
ـ لماذا؟ , لماذا أنا حبيس هذه الغرفة منذ الصغر؟ أريد أن أخرج ، سأفعل أي شيء لأخرج من هنا
ـ أي شيء ؟
التفتت الفتاتان للخلف قالت لجين بذهول :
ـ أختي إنه ... إنه صاحب متجر الحيوانات!
قبضت على يد أختها لتقول باستغراب :
ـ إنه هو بالفعل!
إذن ... هل ذلك الفتى هو الببغاء؟ أعني الأمير؟ الأمير :
ـ أجل ، أي شيء ،هل لديك طريقة تجعلني أخرج من هنا؟
البائع :

ـ لدي لكنك ستضطر لترك كل شيء خلفك
الحاكم ، الحاكمة ، كونك أمير، باختصار عليك ترك القصر ومن فيه هذا بالإضافة لتخليك عن بشريتك
الأمير :
ـ بـ ... بشريتي؟ ما الذي يفترض أن يعنيه ذلك؟ البائع :
ـ يعني أنك ستغادر القصر إن أردت
الأمير :
ـ افعل ما يحلو لك لتجعلني أرحل فأنا لن أبقى مع من يسلبوني حريتي
البائع :
ـ كما تريد ، أظنك ستندم في النهاية
الأمير :
ـ لن أفعل
اتجه نحو الباب معطيا ظهره للأمير قائلاً :
ـ كما تريد حضرة الأمير، سأأتيك قبل بزوغ فجر الغد فكن متيقظاً ، قالها وخرج من الغرفة
عقل متحير ، قلب من الدهشة متفجر ، ونظرات غريبة تتلاحق وتتردد من وجه إلى وجهٍ آخر
هذه كانت حال أمل التي لم تفهم شيئاً
أمل :
ـ يتخلى عن بشريته؟
هل يعني بذلك تحوله إلى ببغاء؟
هذا محال ، لا يعقل أن يختار أي أحد التخلي عن كل شيء فقط للخروج من هنا!
لجين :
ـ بماذا تتمتمين يا أختي؟

أمل :
ـ لا شيء مهم ، هل تريدين البقاء هنا حتى بزوغ الفجر؟
لجين :
ـ أجل بالتأكيد ، سيتحول أميري إلى ببغاء أليس كذلك؟
أمل :
ـ هذا ما أخشاه
ظلتا واقفتان هناك طوال ساعات وكل ما يسمعانه صوت بكائه المؤلم , لم تشعرا بمرور الوقت الذي جرى مسرعا كي يجيب على تساؤلات الفتاتين اقترب بزوغ الفجر ، فُتح باب غرفته بهدوء شديد
لم يصدر ولا حتى صريراً خافتاً قال الدخيل :
ـ هل أنت مستعد حضرة الأمير؟
الأمير :
ـ لقد كنت أنتظرك بفارغ الصبر أيها الوزير ، لكن كيف تمكنت من الدخول والمفتاح عند والدي؟
سار مقتربا من محدثه حتى بات قرب السرير وأجاب :
ـ إنها الثقة ، أنت تعرف كم أن الحاكم يثق بي
ويبدو أني سأخون ثقته
الأمير :
ـ لن تخونها إن لم يعلم بما فعلته لذا لا تخبر أحداً البائع :
ـ أنا لن أعارض رغبتك أبداً ، لكني أأمل أنك تدرك ما تفعل كي لا تندم في نهاية المطاف !
الأمير :
ـ لن أندم ، ابدأ الآن أرجوك
أمل :
ـ يا الهي ما هذا التفكير المتخلف!

أهذا أمير أم أحمق؟

البائع :

ـ خذ أيها الأمير ابتلع هذه لتحصل على ما تريد

قرب يده اليمنى من الأمير الذي نظر لما بداخلها بلهفة وإذا بها حبة صغيرة صفراء اللون !

ارتسمت علامات الاستغراب على وجه الأمير ياس الذي قال متسائلاً بسخرية :

ـ هل تمازحني؟ إنها مجرد حبة! ما الذي قد تفعله حبة؟

البائع :

ـ أنا لا أمزح ، ابتلعها وسترى ، قرب الآخر يده ليأخذ تلك الحبة ، نظر لها مطولاً بشك وقال مستفسراً :

ـ وماذا لو لم يحصل شيء؟

ربت على كتف المتحدث برفق وقال مطمئناً :

ـ لا تكن سلبياً هكذا ، هيا ابتلعها قبل أن يستيقظ أحد الحارسين أمام الباب فهما يغطان في نوم عميق ، هيا أسرع ، أومأ برأسه موافقا ، رمى تلك الحبة في فمه لتستقر بعد فترة وجيزة في جوفه

البائع :

ـ ها قد بدأنا

أمل :

ـ مستحيل

لجين :

ـ إنه يتحول ، لونه أخضر ، أطراف جناحيه وذيله بلون أحمر ، ريش رقبته بلون أزرق فاتح

في تلك اللحظة وأمام أنظار الفتاتين المندهشتين تحول ياس إلى ببغاء

ياس :
ـ ما الذي حدث؟
لماذا أنت كبير الحجم هكذا أيها الوزير؟
لم يجبه المعني بأي كلمة بل اكتفى بتحريك رأسه مشيراً نحو المرآة ، ثم اقترب من الببغاء وحمله بين ذراعيه برفق متوجهاً نحوها ، وقف أمامها ينظر إلى وجه ذلك الطائر الذي ظل متسمراً دون حراك قال بنبرة تنم عن عدم تصديق :
ـ غير معقول! كيف؟ كيف أصبحت هكذا؟
البائع :
ـ هذا ناتج قرارك أيها الأمير ، شكلك هو الشيء الوحيد الذي تغير وبهذه الطريقة تستطيع أن تحلق مغادراً القصر وباحثاً عن سعادتك الخاصة
أجاب بنصر :
ـ أشعر بالسعادة منذ هذه اللحظة ، افتح لي النافذة أيها الوزير ،
الوزير (البائع) :
ـ حاضر
أفلت الببغاء من بين يديه ليحلق ويجول بين زوايا الغرفة بينما قصد هو النافذة المغلقة التي لم تفتح إلا نادراً ، شد على مقبضيها وقبل أن يفتحها التفت إلى الببغاء وقال بهدوء :
ـ سأرافقك أيها الأمير فلا تغادر بدوني ..
حلق بشكل دائري ، ثم استقر على حافة السرير الخشبية قائلا :
ـ ترافقني ! لماذا؟
الوزير :
ـ لا أستطيع تركك ، أنا من فعل بك هذا وأي أذىً تتعرض له سيكون بسببي
ياس :

ـ لا تقلق علي أبداً ، سأكون بخير

الوزير :

ـ هذا لن يغير رأيي

ياس :

ـ آه ، حسنا كما تريد

هبت رياح قوية صامتة احتلت الغرفة ، دوامة سوداء كبيرة توسطت المكان ، وقوة جذب غريبة أخذت الفتاتين معها ، وقتها لم يكن هناك أي صوت سوى صراخ الطفلة التي صرخت بخوف :

ـ أختي أنا خائفة ، خائفة أنقذيني!

تلاشى صوتها شيئاً ، فشيئا كما تلاشت هي بكاملها تبعتها أمل التي أوصدت عينيها بكفيها من الفزع وهي تنادي أختها الصغيرة :

ـ لجين ، لجين

أنفاس متلاحقة ، شهيق وزفير بشكل سريع ، عرق يتصبب من الجبين ، ونظرات مضطربة تتضارب مع ما حولها لتقول صاحبتها :

ـ أين أنتِ يا لجين؟

لجين :

ـ أنا هنا

ابتسامة خفيفة ارتسمت على محياها ، وهي تطوق الصغيرة التي أسرعت نحوها ما إن رأتها

أمل :

ـ كم أنا سعيدة لأنك بخير ، سعيدة حقاً

لجين :

ـ هل صدقتِ الآن؟ الببغاء حقا أمير ..!

أمل :
ـ إنه كذلك ، إنه كذلك بالفعل يا عزيزتي لقد صدقتِ البائع :
ـ هل رأيتما ما حصل آنستاي الصغيرتين؟
أمل :
ـ عن نفسي ، فقد شاهدت ما يكفي لأقول وبكل صراحة كم هذا الأمير أحمق .. ماذا؟
نظرت للخلف بسرعة حيث كان من نطق بآخر كلمة يقف ككل يوم على تلك القطعة الخشبية سارت ناحيته ، حدقت به بملامح غاضبة ، وقالت : ـ أنت شخص غبي ، لا تفقه شيئاً على الإطلاق
كيف يسمح لك قلبك المتحجر بأن تترك عائلتك وترحل؟
تضحي بما كنت عليه لتصبح ببغاءاً لم ، ولن يهتم به أحد من أعماق قلبه إلا ليبدي إعجابه بألوانه الزاهية ، لا يوجد والد يكره ابنه ، هذا محال
كل ما فعله كان حتما لحمايتك من شيء ما ، من تلك الحرب الأهلية على ما أعتقد أليس كذلك؟
انقسام المدينة الصغيرة إلى نصفين ، قفل محكم لباب غرفتك ، مفتاح لا يتركه الحاكم ، وحراس يحرسون الغرفة طوال الوقت ..
ألا يدل هذا على مدى اهتمام عائلتك بك ، وخوفها عليك؟
لهذا أنعتك بالأحمق بل والأعمى أيضا لأنك لم ترَ ذلك أبداً
لم ترَ كم يرغبون بحمايتك من أي أذىً يمكن أن يصيبك مِنْ مَنْ يقفون ضد والدك ، أنت مثير للشفقة الببغاء :
ـ هذا يكفي يا آنسة ، فأنتِ لا تعرفين شيئاً
أمل :
ـ بل أعرف .

عرجت إلى أختها التي لم تفهم دوافع هذا الحوار أمسكتها من ذراعها بقوة وهي تخاطبها :

ـ حان وقت مغادرتنا يا لجين ، فأنا لا أريد البقاء هنا فترة أطول

لجين :

ـ هل سنعود لاحقا؟

أمل : أبداً

لجين : لكن...

أمل : ـ لا تناقشي ، هيا بنا

خرجت مع أختها ضاربة الباب بشدة خلفها

ساد الصمت لدقائق بدت طويلة جداً

لم يعرف أيٌ منهما بماذا ينطق بعد كل ذلك التأنيب حتى تكلم ياس بندم :

ـ أظنها محقة ، لقد أخطأت بالفعل

.

.

.

بعد مرور4 أشهر ...

تجلس لجين على الأريكة أمام شاشة التلفاز وأمل جالسة على الأرض تكتب فروضها رن جرس المنزل

أمل : أنا سأفتح

نهضت بنشاط ، وذهبت إلى الباب لتفتحه متسائلة عن الطارق في داخلها ، بعد أن فتحته رأت شخصا أطول منها يحمل ببغاءاً يقف

على سبابته اليمنى يضعه أمام وجه بحيث لم تتمكن من رؤية ملامح ذلك الشخص

أمل :

ـ بماذا أستطيع مساعدتك؟

ـ جئت لأشكركِ يا أمل

أمل :

ـ كيف عرفت اسمي؟

ـ وكيف أنساه بعد ذلك التوبيخ الذي نلته منكِ

أبعد الطائر عن وجهه لتتبين ملامحه

تفاجأت أمل كثيرا ، صرخت قائلة :

ـ الأمير! ، غير معقول .. كيف ، كيف صرت آدمياً من جديد؟ وما الذي تفعله هنا؟

وما هذا الببغاء الذي تحمله؟

ياس :

ـ على رسلكِ ، لقد أعادني الوزير إلى ما كنت عليه وأنا هنا لكي أشكركِ على كل شيء ، أما الببغاء فهو هدية لأختكِ الصغيرة

أمل :

ـ لجين تعالي لتري من جاء لزيارتنا

لجين : من؟ من؟

وقفت بجوار أمل وهي تنظر بدهشة قائلة :

ـ الأمير!

قالتها وهي تحدق بالببغاء الذي امتلك ألوان الأمير سابقاً

ياس :

ـ هل تقصدينني أم الببغاء؟

لجين :

ـ الببغاء بالطبع ، ولمَ قد أقصدك أنت؟

ياس :
- يبدو أن 4 أشهر كفيلة بجعلك تنسين شكلي
المهم هذا الببغاء هدية لكِ يا عزيزتي
لجين :
- إنه أميـــر ، لقد مللت من تكرار هذه العبارة عليكم همس بصوت خافت سمعته أمل :
- بل أنا هو الأمير أيتها الطفلة الساذجة ، ابتسمت بود وهي تحدق بعينيه المضطربتين
يبدو أنه كان يبحث عن كلمات مناسبة ليبدأ بها حديثه ، تفكير عميق للحظات ، ثم بدأ :
- أريد أن أقول لكِ شكرا على كلامكِ الأخير في المتجر جعلني أدرك مقدار خطئي ، طلبت من الوزير أن يعيدني إلى طبيعتي ، عدت بعدها إلى القصر لأكتشف أن الحرب الأهلية قد وصلت ذروتها هرعت نحو والدّي لأكتشف أنهما كانا قلقين عليّ حقاً ، أظن أن عودتي كانت سبباً ليقمع أبي تلك الحرب ، بحثت عن سعادتي الخاصة متجاهلاً الآخرين ، وأنتِ جعلتني أميز الخطأ من الصواب وأصحح كل شيء ، لهذا أنا هنا ، لأشكركِ من أعماق قلبي
كانت هذه زيارة سريعة ، لذا سأعود إلى القصر فقد وعدتهم بأني لن أتأخر ..
شكراً مرة أخرى وإلى اللقاء على أمل أن ألتقي بكِ مجدداً

لوحات بألوان الطيف

أمسك فرشاته الحمراء ليبدأ بزخرفة اللوحة البيضاء القابعة أمامه ، لا يستخدم سوى ألوان الحزن
الأسود ، الرمادي ، البني والأزرق الغامق
نسبح في فضاء تلك الغرفة لنرى ما رسمه
بحر هائج يغرق سفينة ، أرض قاحلة تتوسط سماءها شمس حارقة ، أزهار ذابلة مصفرة ، فتاة في مقبرة !
كل هذه اللوحات غطت جدران غرفتهِ المطلية باللون الرمادي الداكن
وائل ، لقد جهز الطعام
اخترق هذا الصوت باب غرفتهِ المغلق ليصل إلى مسامعه ، لم يحرك ساكناً ، أجابها بصوت يغمره البرود :
ـ لا أريد طعاماً
صوت وقعِ أقدام تقترب شيئاً ، فشيئاً
طرقت ذلك الباب برفق وقالت :
ـ لكنك لم تأكل شيئاً منذ يومين يا بني
ترك فرشاة الرسم من يده ، وقال بصوت مرتفع :
ـ قلت ، لا أريد طعاماً
حملقت بالباب فترة من الوقت ، كانت يدها اليمنى بمستوى قبضته تريد أن تفتحه ، أن تحضن ابنها الذي لم ترَ وجهه ليومين كاملين ، بل إنها لا تراه كثيراً مطلقاً ، تتمنى لو يخرج من عزلتهِ هذه

يحب الرسم هي تعلم ذلك لكن أن يكون حبيس غرفته لأيام ، فهذا فوق ما يتحمله قلب أم قد عانى الأمّرين بعد وفاة رب الأسرة سمع صوت خطاها تبتعد إلى أن تلاشى بعد لحظات أطلق تنهيدة قوية ، وعاد ليمسك فرشاته مباشراً الرسم من جديد. قال بصوت خافت جداً :

ـ أحبكِ يا أمي

وتابع تمايل يده مع الفرشاة لتزخرف اللوحة البيضاء بشيء من الكآبة والحزن بعد دقائق قليلة لم يستطع متابعة الرسم ، أفلت الفرشاة ، ووضعها قرب الألوان , نهض بتكاسلٍ متجها نحو باب غرفتهِ أطلق تنهيدة خفيفة ، وخرج غرفته تقع أمام المطبخ مباشرة ..

ما إن خرج حتى وقعت عينه على والدتهِ الجالسة هناك وحدها تمسك الشوكة ، وتحركها في صحن المعكرونة كمن فقد شهيته للأكل

أمي .. رفعت بصرها لتتلاقى و نظرات وائل الباردة ، نهضت من على كرسيها بسرعة ، وقالت بلهفة :

ـ بني ، هل تشعر بالجوع؟ هل تريد طعاماً؟

ظل صامتاً يحدق بعينيها المتلألئتين ، هل يعقل أن خروجه من غرفتهِ أشعرها بكل هذه السعادة؟

أومأ برأسهِ قائلاً :

ـ أجل ، من فضلك ، سار ببطء ، وجلس على كرسيهِ أمام كرسي والدتهِ التي كانت تحضر له الطعام

حدق فيها بصمت مطولاً ، اتسعت عيناه من دهشتهِ فتح فاهه ليقول شيئاً لكنه لم يستطع

دموع ...!

رأى والدته تذرف الدموع مما ألجم لسانه

حاولت إخفاء دموعها لكنها لم تنجح. نهض من مكانهِ ، سار نحوها بخطى متقاربة ، مترددة

مدّ ذراعه اليمنى لتستقر على كتف والدتهِ

ـ لمَ هذه الدموع يا أمي؟

كفكفت دموعها بأطراف أناملها ، حوّلت نظراتها نحو ابنها الذي بدا عليهِ الاستغراب

قالت له بنبرة مطمئنة :

ـ لا تشغل بالك يا بني ، ليست سوى دموع سعادة رسمت ابتسامة حنونة على محياها ، وتابعت :

ـ أرى أنك بدأت تخرج من عزلتك أخيراً

بادلها الابتسامة ، وقال بصوت منكسر :

ـ اعذريني.

أبعد يده عن كتف والدتهِ ، وعاد بخطاه المتمايلة إلى كرسيهِ

تناولا الطعام بصمت ، لم ينطق أيٌ منهما بحرف واحد ، لكن قلب والدة وائل امتلأ سعادة آنذاك

وحيدٌ في غرفتهِ كالعادة ، يخط بفرشاتهِ الحمراء ليكون صورة هي انعكاس لآلام قلبهِ الدفينة

فجأة فكرة جديدة طرأت على باله

كانت كحبل ينقذه من هاوية التعاسة الأبدية

سمع همسا في داخلهِ يقول : أرسم البهجة يا وائل كن سعيداً ولو ليوم واحد ، أرسم

تبعت أعماقه ذلك الهمس لأول مرة

بدأ بخلط ألوانهِ البهيجة

(الأحمر ، البرتقالي ، الأصفر ، الأخضر ، الأزرق و الأرجواني)

ظل يحدق بلوحتهِ البيضاء لفترة ، يفكر ماذا سيرسم تراءى له طيفها الحنين ، حضنها الدافئ وكلماتها التي تبعث على الراحة ،

قال بصوت غير مسموع بعد أن رسم ابتسامة على شفتيه المائلتين للبياض : أمي .. عاد لمسكِ فرشاتهِ بيمناه مباشراً رسم والدتهِ وكنزهِ الغالي ، لكن بدأت تتحرك لوحدها ، نعم لوحدها ..!

يده اليمنى ، لم يستطع السيطرة عليها

امتدت على الألوان الحزينة من تلقاء نفسها ، بدأت تزخرف تلك اللوحة البيضاء برسمة هي أشبه بالواقع

امرأة توشك على عبور الشارع ، وحافلة آتية فتنتشل روحها من جسدها

ظلّ مندهشاً ، مصدوماً

ما الذي حدث للتو؟!. قالها ، وهو يحملق بذراعهِ اليمنى المرتجفة

هزّ رأسه مراراً وتكراراً نافياً فكرة أن يده قد تحركت

لا ، هذا محال ، لابد أني كنت أتوهم لا أكثر

صمت قليلا ، عاد ليرمي تلك النظرات المستغربة على اللوحة و ... وماذا عنها؟

كيف رُسِمت هذه اللوحة إذن؟

تجاهل الأمر ظناً منه أنه وهم لا أكثر ، كما تجاهل موضوع رسم صورة سعيدة لوالدته.

بعد 3 أيام ..

بني ، سأذهب عصر اليوم إلى السوق هل ترافقني؟. قالتها وهي جالسة على كرسيها أمامه في المطبخ يتناولان طعام الفطور

كان على وشكِ أن يدخل اللقمة في فمهِ عندما نظر لها بطرف عين ، وأجاب :

- لا ... لا أريد الذهاب

صمت لوهلة ، وبدأ التحديق بذراعه اليمنى
ألقت بنظراتها المستغربة عليهِ ، قالت بشيء من الحيرة :
ـ ما بكَ يا بني؟ لست على طبيعتك منذ 3 أيام أراك تحدق بذراعك كثيراً ، فهل من شيء يشغل بالك؟
ـ لا ... لا شيء ، لا تزعجي نفسكِ يا أمي
بصعوبةٍ بالغةٍ تجاهلت قلقها ، وذهبت لتنظيف المنزل ، عصر ذلك اليوم وقف وائل قرب نافذتهِ يحدق بوالدتهِ التي توشك أن تعبر الشارع أصبحت إشارة المرور خضراء للمشاة ، فهمت والدته بالعبور .. في تلك اللحظة ، حصل شيء غريب ! توقفت كل إشارات المرور لتتحول فجأة إلى الأخضر للسيارات ، حافلة كبيرة قادمة ، وحادث مروع ، تكاد عيناه تخرجان من محجريهما ، أحكم القبضة على ستارة نافذة غرفته ، بدأت الدموع تنهمر من عينيهِ شيئاً فشيئاً ، حتى قال :أم ... أمي
بدأ يصرخ بصوت مرتفع كالمجانين : أمي ، أمي خرج من غرفتهِ مسرعاً إلى الشارع حيث أصبحت أمه جثة هامدة والناس متجمهرون حولها لا يعرفون هل عليهم الاتصال بسيارة إسع اف أم أن الأوان قد فات ، ها هو يجلس أمام لوحتهِ البيضاء كالعادة يمر أماه شريط ذلك اليوم المشئوم وكأنه الأمس
مرت ثلاثة أشهر على فقدانهِ لوالدته ، عاد لتلك الوحدة من جديد ، ذراعه اليمنى تلك كادت تثير جنونه ، فكلما رسم شيئا تحقق دون أن يعرف كيف ولماذا؟
وحيد ، وحيد ، وحيد ولا أحد يعلم أنه أصبح طفلاً وحيدا بسبب عزلتهِ ، شعر بالاختناق من جو المنزل فقرر أن يخرج ولو لمرة واحدة أمام منزلهِ

كانت هناك حديقة صغيرة يتواجد بها الفتية على الدوام ، سار باتجاهها ، وجلس على مقعد مهترئ بالقرب من مجموعة أولاد كانوا يلعبون كرة القدم بدا شارد الذهن ، وهو ينظر إليهم
اقترب منه أحد الفتية وقال :
ـ أيها الصبي ، هل تريد مشاركتنا في اللعب؟
ينقصنا لاعب في الفريق ، ظل يحدق بذلك الفتى مستغرباً ، بقي صامتاً لثوانٍ ثم أجاب :
ـ لا ... لا أريد اللعب
قالها ، ونهض من مكانهِ عائداً إلى المنزل
لم تغب صورة أولئك الفتية عن بالهِ أبداً
تلك السعادة البادية على وجوههم أثارت شيئاً ما بداخلهِ
رمى بنظراتهِ على علبة الألوان خاصتهِ
وقال هامساً : لقد حان أجلكِ أيتها الألوان
رسم ابتسامة عريضة على شفتيه ليتابع متمتماً : الغد سيكون بداية جديدة ..!

في عصر اليوم ..
التالي وقف قرب نافذة غرفتهِ من جديد ، ذات الفتية في المكان نفسهِ يلعبون كرة القدم كما الأمس
كأنه سيناريو يتكرر هذا اليوم ، لكن لا
هو لن يسمح لليوم أن يكون كالأمس
مختلف .. نعم يريده أن يكون يوماً مختلفاً
خرج من منزله ، وجرى مسرعاً نحو الفتى الذي ناداه للعب البارحة وقف أمامه ، اتكأ على ركبتيهِ وبدأ يلتقط أنفاسه ، رفع بصره لتتلاقى نظراته والفتى فقال له بلطف :
ـ أرغب باللعب معكم

ضربه بخفة على كتفهِ وقال :
ـ في وقتك تماماً
قضى ذلك اليوم يلعب مع أصدقائه الجدد
كان يوما غريبا بالنسبة له ، فهو لم يستمتع هكذا من قبل
بدأ قرص الشمس يختفي عن أبصارهم ليحتل السماء ذلك الظلام لكنه لم يكن ظلاماً مريباً ، مؤلماً بل كان ظلاماً معلناً عن انتهاء يوم مميز في حياة وائل
عاد إلى منزلهِ سعيداً ، مبتهجاً ، فها هو قد تخلص أخيراً من عزلتهِ التي لطالما آلمت والدته
وقف في منتصف غرفتهِ ، ينظر إلى الألوان تارة وإلى يدهِ اليمنى تارة أخرى
ابتسم وقال بتحدٍ : حسنا أيتها اليد ، إن كنتِ تريدين تحقيق كل ما أرسمه فافعلي
أخذ علبة ألوانهِ الداكنة ورماها في سلة المهملات وضع بعض المال في جيب بنطالهِ الخلفي ، وخرج من المنزل متجها نحو أقرب متجر لبيع الألوان الزيتية
عاد إلى منزلهِ بعد أن اشترى سبعة ألوان هي ألوان قوس الرحمن
بعد مرور 7 سنوات ...
نحلق في فضاء غرفتهِ لنرى ما رسمته أنامله من لوحات ، لا أثر للكآبة ، لا أثر للحزن , كلها لوحات سعيدة وجميلة
لكن ، هناك لوحة تجذب الاهتمام ..!
سماء زرقاء صافية ، شمس مشرقة تتوسطها بعد انقشاع شيء من الضباب ، وقوس رحمن يخترق الأجواء ..!
نعم ، منذ ذلك اليوم أصبحت كل لوحاتهِ ، لوحات بألوان الطيف

ندم مبكر

صوت قطرات الماء تتسرب من الأنبوب الصدئ
كان هذا الصوت الوحيد الذي يسمع
الظلام دامس وكافة الحواس معطلة إلا السمع الذي يتوتر وسط هدوء المكان وقطرات المياه تسقط الواحدة تلو الأخرى ، كان هذا المناخ كافياً ليوقظ الشاب الذي احتضنته العتمة من نومه ، فتح عينيه ببطء وشيء من الارتباك تسلل لخلاياه
ليس من عادته أن يسمع صوتاً مزعجاً كهذا عندما يستيقظ من النوم ، ليس من عادته أن ينام على كرسي كما ليس من عادته أن يكون مقيداً !
لكن مقيداً ممن ؟
اعتدل في جلسته علّه يجد الوضعية المناسبة التي ستجعله يتذكر ما حصل لولا أن شعر بألم مفاجئ في الرأس ، تجاهله باستصعاب ليتساءل
لماذا هو هنا ؟
في هذا المكان الذي تفوح منه رائحة الصدأ المتعفن حاول استرجاع ما حصل له كأنه يكافح لتشغيل شريط فيديو بصور متقطعة ، تجميع أحجيته أوصله للتذكر ، لابد أن تلك الضربة التي تلقاها على رأسه أفقدته الوعي ..
فجأة قال :
ـ مايك! هل هو بخير؟
صوت قطّر الخبث منه تقطيراً رد عليه :
ـ لا تقلق أبداً بشأنه

فأنت من سيحدد هل سيكون بخير أم لا !
تكلم بارتباك وهو يحرك رأسه في كل الاتجاهات علّه يرى محدثه وسط هذا الظلام :
ـ من أنت ؟
وماذا كنت تعني بكلامك؟
أضيء المكان فجأة ليسمع "ستيف" صوت خطوات خلفه تقترب شيئاً فشيئاً ، يد وضعت على كتفه ونفس نبرة الصوت الخبيثة تسللت لمسامعه :
ـ صدقني أنا أريد مساعدتك فقط ، أنت لا يجب عليك أبداً السكوت عمّا حصل قبل عشر سنوات
هل نسيت صراخها؟
أم لون دمائها الذي كان ملمسه آخر ذكرى منها؟
مع كل كلمة كانت عيناه تتسعان ، ذكريات ذلك اليوم التي قضى السنين العشر في محاولة نسيانها عادت لتهاجمه من جديد
هل نسيت صراخها؟
هذا السؤال جعله يوشك على البكاء مرة أخرى وذرف الدموع التي ظن أنها استنزفت جميعها في يوم واحد
في اليوم الذي شعر لأول مرة فيه بلزوجة الدماء ، ودماء من ؟ أخته الصغيرة التي لم تكمل عامها السادس بعد.

حاول السيطرة على نفسه لكن دون جدوى ، كل جهوده فشلت أمام الدموع التي احتبست في عينيه . قطعت عليه طقوس الحزن وهو يستشعر تلك اليد تتحرك لتصل مكان قلبه ، قال صاحبها وابتسامة اعتلت ملامحه : هذا القلب يستحيل أنه قتل كل مشاعر الحقد تجاه ذلك الشخص . لا تقلق فأنا في صفك ، ومعاً ... معاً سننتـــ ...

-لا أريد !

صرخ "ستيف" بهذه العبارة بقوة ليتابع : من أنت لتحكم أن قلبي حاقد أم لا ؟ لو كنت أريد الانتقام لفعلت منذ سنوات لكن لا! لن يتغير شيء.

لم يجب قبيح الملامح بشيء ، اكتفى بإخراج إبرة من جيبه بها سائل زهري اللون ، ورغم صوت الشاب يطلب منه الابتعاد عنه قرّبها من ساعده ليحقنه بها . شعر "ستيف" بعد ثوانٍ معدودة بشيء من الدوار ثم ... لا شعور! ليصبح كل شيء مظلماً.

×××

لكمة قوية أطاحت به ليتهاوى على الأرض مرعوباً ، أمسكه من قميصه ليجبره بخشونة على النهوض ، كان يرتجف ... يرتجف والعرق يتصبب منه بغزارة . جفل عندما سمع المعتدي يتكلم بغضب أبداً ليس خافياً عليه واللكمة كانت دليلا : سأكرر كلامي للمرة الأخيرة علّك تسمعه جيداً أيها المشرد القذر ، شاب في عقده الثاني متوسط الطول وله شعر أبيض دخل هذا الزقاق ليلة أمس لكنه لم يخرج . ماذا حصل له؟

كلمات متقطعة كانت كل ما تمكن من تقديمه بسبب الخوف الذي أربكه وألم تلك الضربة على وجهه زاد من تشتته ، إلا أنه بدا واثقاً بجوابه رغم كل شيء : لقد ... لقد سمعتك منذ ... المرة الأولى وأجبتك ... صدقني أنا لم أرَ أحداً يدخل هذا الزقاق أمس أقسم لك ... بل القسم يجب أن يكون ... بأني أنا لم آتي هنا مساءً ... أرجوك صدقني.

زمجر بحنق ورمى الرجل أرضاً ... ظل يتلفت يميناً ويساراً علّه يلمح ما قد يساعده على إيجاد شريكه . شيء من اليأس تسلل

لقلبه بعد أن فقط أي خيط يوصله لـ "ستيف" الذي اختفى دون أي أثر . دس أطراف أصابعه في شعره الأشقر ليحكه وهو يتمتم بندم : ما كان يجب أن نفترق ... كان يفترض بي أن ألازمه ولا أتركه يتعرض لمكروه أبداً.

بدأ بالسير خارجاً من الزقاق بخطى متثاقلة كأنها لا تريده أن يخرج ، تفكيره منصب على شيء واحد ، كيف لشخص أن يختفي في مكان كهذا دون أثر؟

شعلة من الأمل ألهبت قلبه عندما انتفض قائلا بصوت مرتفع : فتحة التصريف ! لابد من وجود واحدة هنا مختفية تحت ركام القمامة ، عليّ فقط أن أجدها.

عاد مهرولاً ليبدأ البحث من جديد بعد هذا الخيط أو بالأحرى الحبل الكبير الذي وجده . جثا على ركبتيه متجاهلاً قذارة الأرض ، ومدّ يده ليتحسس أي أثر لفتحة المجاري . ظل يبحث ويبحث وما كان للضوء الخافت لإحدى الشقق الفقيرة أن يسهل عليه بحثه . فجأة ضرب رأسه بشيء ، رفعه ليلمح الشعر الأبيض الذي بدا له أسوداً وذلك الجسد الذي يمكن أن يميزه من بين ألف جسد . نهض بسرعة وهو لا يكاد يصدق فهتف قائلا ببهجة : ستيف ! لقد عدت يا شريك.

ربّت على ظهره وأكمل ضاحكاً : ما كان عليك أن تخرج بل يجب أن تثق بي ، كنت سأجدك بكل الأحوال صدقني . فقط قل لي أين كنت؟

لكن لا صوت يسمعه ، ابتلع ريقه عندما شعر بشيء من القلق خلف هذا الصمت المريب . "ستيف" هادئ أجل لكنه ليس

متجاهلاً . أبعد فكرة الريبة من باله وسحبه من يده ليخرجا عائدين إلى البيت.

في هذا اليوم تيقن "مايك" من شيء كان عقله الباطن يقنعه بتجاهله ، "ستيف" ليس مجرد شريك له فقط بل هو أكثر من ذلك ... أكثر من ذلك بكثير . إنه كل عائلته.

×××

فتح باب الشقة بضربة قوية من قدمه ... إما أن قدمه حديدية أو أن الباب مهترئ لأبعد الحدود لأنه لم يقاوم البتة . بجميع الأحوال هذا الباب يكلفهم راتبهم الشهري بسبب الطريقة المتحضرة لـ "مايك" بفتحه . دخل الشقة ، وصرخ بحماس : إنه الوقت المثالي للعصير . مبارك لك عودتك يا شريك.

دخل "ستيف" دون أن ينطق ببنت شفة ، سار حتى وصل إلى أريكة جلس عليها بهدوء معطيا ظهره لـ "مايك" الذي ظلّ واقفاً مكانه ينظر باستغراب محاولاً تحليل ما يجري . تساءل في نفسه : هل حصل شيء؟ لا يبدو الفتى طبيعياً ، فاختفاؤه مريب والآن عودته بشكل أكثر ريبة وعدم تكلمه حول الأمر ... شيء ما يحصل.

-سأحضر العصير من الثلاجة ولا تقلق هذه المرّة لن أشرب خاصتك . سأترك نذالتي.

قال هذه العبارة بمرح وسار نحو المطبخ الملصق لغرفة المعيشة ، ما إن وضع يده على مقبض الثلاجة حتى سمع "ستيف" يقول بصوت هادئ بارد : لقد كانت جميلة.

ابتسم "مايك" عندما سمعه يتكلم أخيرا ، سأله باستغراب لم يخفِ فرحته : من هي؟

-أختي.

قالها دون أي تعبير مرتسم على وجهه . ابتلع "مايك" رمقه بصعوبة وصدى الكلمة يتردد في أذنه . لماذا الآن؟ لم يذكرها منذ تعارفهما.

رآه يخرج شيئا من جيب قميصه الأزرق ، وحدّق به بشرود دون النطق بشيء . أخرج علب العصير وعاد إلى حيث "ستيف" ليجلس على أريكة صغيرة على يمينه . شرب الأخير عصير الليمون الذي يحبه بسرعة ونهض سائراً إلى الحمام.

شكوك "مايك" تزداد والقلق يزداد أكثر فالوضع لا يدعو للاطمئنان البتة . جال بنظره في أرجاء الغرفة شارداً عندما وقع بصره على ما تركه "ستيف" فوق الطاولة قبل أن ينهض . إنها صورة مقلوبة على وجهها . ما إن مدّ يده نحوها حتى سمع صوت باب الحمام يفتح . نهض بسرعة وقال : حسناً ، سأذهب للنوم الآن وأنت افعل المثل فغداً ليدنا عمل كثير في المخفر . تصبح على خير.

×××

-مرحبا بعودتك "ستيف".

-قلقنا عليك يا رجل.

-يوم واحد والمخفر كيانه مهزوز من دونك فكيف لو طال الأمر ! لا ترعبنا هكذا مرّة أخرى.

عبارات تطايرت وأتت لـ "ستيف" من كل أفراد المخفر وهم يرحبون بعودته فهذا الذي ضربه على ظهره وهذا الذي حضنه بقوة ، ومنهم من عبث بشعره كطفل صغير فقد افتقدوه حقاً ... كلهم يحبون أصغر فرد بينهم وأكثرهم أمانة واهتماماً بواجبه ، لم يكمل عامه التاسع عشر بعد وحصل على ترقية أذهلت الجميع.

لكن ... كل هذا الترحيب الحار قابله بـ : شكراً.

تلك الكلمة التي خرجت من فيه دون أي تعبير يدل على الامتنان . حاول "مايك" تدارك الموقف قبل أن يشعر أحد آخر غيره بالغرابة فهتف قائلا : لا تعيروه بالاً الآن ولا نبرته ، إنه فقط مصدوم.

ضحك بصوت عالٍ ليكمل : نعم نعم إنها آثار الصدمة . تعرفون ؟ أمس كانت المرّة الأولى التي ينال فيها شريكي عصير الليمون لأنني كنت أشربه دوماً . لا تقلقوا فهذه فعلاً آثار الصدمة السعيدة.

دفع "ستيف" من الخلف وهو يحثه على السير هامساً في أذنه : تحرك قبل أن توقعنا في ورطة.

وصلا إلى مكتبين صغيرين متجاورين كحال مكاتب المخفر كله ، جلس كل منهما على كرسيّه متناولا سجلاً في يده خاصاً بقضية معينة ليدرسا تفاصيلها.

بعد ربع ساعة دون تبادل طرف حديث ، سئم "مايك" فهو لم يكن معتاداً على عدم الثرثرة مع صديقه لفترة تتعدى الخمس دقائق رغم أن "ستيف" لم يكن يرد بالكثير لكن على الأقل ... كان يرحب بكلامه المتواصل.

جلس على طاولة "ستيف" ورمى كومة من السجلات أمامه لقول متذمراً : هذه تنتظرك لتوقع عليها ، ثم ما رأيك بعد أن تكمل أن نخرج قليلاً ، اكتشفت قبل أربعة أيام مقهى يقدم شاياً بالنعناع من ألذ ما شربت . ها ماذا قلت؟

-لدينا الكثير من الأعمال كما ترى ولا أظننا نملك الوقت الكافي لأجل الشاي المنعنع الذي لا أرى لتذوقه داعياً.

زفر بقوة وقال بانفعال : طفح الكيل ، "ستيف" ما مشكلتك يا صاح؟ أنت لست على ما يرام منذ عودتك . ثم أين كنت من الأساس؟ ماذا حصـ ...

تلك الدموع التي انهمرت أخرسته ، وصوت أشبه بصوت طفل جريح يتكلم : لقد كانت طفلة ... طفلة يا "مايك" ، بقاؤها حيّة ما كان ليضرّك .. كانت ... طفلة.

العينين البنيتين اللتين تميزتا ببرودة نظراتهما تأملتا حاله بإشفاق ، لكن الإشفاق على من تحديداً؟

على هذا الطفل الباكي؟ أم على سالب حياة أخته الذي احتضنه بكل قوته وهو يكلمه بصوت منخفض مرتجف : أرجوك سامحني يا "ستيف" . أنا مستعد لأن أقضي حياتي كلها أطلب من السماح حتى تسامحني وإن لم تفعل ... لن يمحي الأمر ندمي الذي يؤرقني ويسرق مني نومي كل ليلة . لا تظن أني بسخافاتي ومزاحي أتناسى ما حصل . لقد تغلغل الندم وسكن كياني وإن كان لا ينفع ... سامحني.

كفكف دموعه وقال بهدوئه المعتاد : أظنك كنت شارداً ولم تنتبه إلى خبر وصلنا بأن المجرم قد ظهر مرّة أخرى.

تراجع قليلاً للوراء بعد أن أحس بالجدية التامة حول الأمر فهذا المجرم يلاحقونه منذ ثلاثة أشهر دون جدوى ... وربما أكثر!

-أين ظهر؟

-في نفس المكان الأخير ... ذلك الزقاق البائس.

قالها ونهض من مكانه متوجهاً نحو باب الخروج . ظلّ "مايك" واقفاً محلّه ، وضع يده على ذقنه وقال بصوت خافت مخاطباً نفسه : هذا الموقف يبدو لي مألوفاً . اختفاء شخص ثم عودته فجأة ، تغير تصرفاته وتذكره لشخص معين دون سواه ، و ... رغبة بالعودة لمكان الاختفاء . تباً ما أغباني ! كيف لم أتذكر هذا ؟ كيف لم يخطر الأمر على بالي ؟ هذا يعني أن "ستيف" ... "ستيف" سوف ...

لم يكمل عبارته بل أخرج مسدسه ليتأكد من ذخيرته ، ثم هرول نحو الباب ليلحق بـ "ستيف".

وصلا إلى الزقاق الذي شهد معهم على كل الأمور التي حدثت خلال يوم واحد فقط!

-هناك ! لقد لمحت شخصاً يجري هارباً . لنلحق به قبل أن يفلت منّا.

عقد "مايك" حاجبيه وقال في نفسه : لكن نهاية الزقاق مسدودة ، إلى أين قد يهرب في وضح النهار؟ ثم أنا لم أرَ أحداً بل ليس هناك أحد أساساً.

قام بمسايرة "ستيف" الذي دخل الزقاق مسرعاً حتى وصل إلى نهايته . وقف هناك بصمت يحدق بالحائط أمامه ، تقدمه "مايك" ليقول : ليس هناك أحد ، ربما كنت متوهماً فقط.

-كيف أمكنك فعل هذا؟

التفت المعني نحو مخاطبه ليستفهم باستغراب : ها؟ عمَ تتحدث؟

صرخ والدموع تسابق كلماته ، الغضب في صوته والكره في نظراته ، كل شيء جعل "مايك" يتراجع قليلا وهو يسمعه يقول : كيف أمكنك أن تقتل طفلة لتوها شعرت بحياتها؟ لتوها دخلت المدرسة ! لتوها أنهت عامها الخامس لتشعر بلذة الحروف والأرقام . لتوها ... أين كان عقلك ؟ بل أين كان قلبك يا "مايك" ؟ يوم واحد ... يوم واحد فقط اضطر فيه والداي ولأول مرة لتركنا وحدنا في البيت ... يوم واحد يكون مأساة حياتي وأنا أرى جوهرتي الغالية جثة هامدة تتلذذ عيناك بمنظر دمائها.

-اهدأ "ستيف" ، أنت مضطرب الآن ولست بكامل وعيك فقط اهدأ.

بدا أن تلك الكلمات كان ذات مفعول عكسي ، انقض "ستيف" على "مايك" ولكمه لكمة أطاحت به أرضاً . أخرج مسدسه ليطلق عليه إلا أنه ... لا رصاص منطلق !

ابتسم "مايك" وعلامات النصر لاحت وجهه ليقول : صدقني قد عرفت –وإن كنت متأخراً- بما حلّ بك وما حصل للتو كان كما توقعته تماماً . لذا ليس عليك أن تتوقع وجود رصاص في مسدسك لأنه فارغ.

تراجع "ستيف" للوراء مدهوشاً وهو يتمتم : كيف؟ ... كيف فعلـ ... فعلتها؟ متى؟

-ليس مهماً ، المهم الآن هو أن أعيدك لعقلك.

أخرج مسدسه من بيته الجلدي ليوجه فوهته نحو صديقه ، قال ببطء : عد إلي يا "ستيف".

وصوت رصاصة اخترق صمت ذلك الزقاق.

×××

طرق الباب بهدوء ليدخل قبل أن يسمع الجواب ، تقدّم نحو ذلك الشاب المستلقي على سريره الأبيض الذي مكث فيه قرابة الأسبوع . قال بهتاف : صباح الخير يا شريك ، كيف حالك في هذا اليوم المشرق يا أشيب الشعر؟ وكيف هي نفسيتك بالبقاء في المستشفى أسبوعاً؟ ألا تنوي الخروج؟

ابتسم بود ليجيب بنبرة مهذبة : أرجوك لا تذكرني ، الطبيب قال أنني أحتاج للمكوث هنا أكثر . ثم أنا للآن لا أعرف ما سبب وجودي هنا . أقصد كيف أصبت بعيار ناري في صدري؟ ولم أمت!

همس "مايك" بصوت لم يسمعه محدثه : ربما ... كان المطلق محترفاً.

-"مايك" ؟ لم تجبني بعد . لماذا لا أتذكر شيئاً؟

-أوه نعم نسيت أن أخبرك أحضرت لك باقة أزهار كما ترى وعلبة بها حساء دافئ لأنني واثق بمدى قرف الطعام هنا وكوني أحبك لا يسعني تركك تعاني أكثر . بالمناسبة خرجت اليوم للتنزه قليلاً ورأيت جرواً مشرّداً فأخذته للشقة ، أعلم كم تحب الجراء الصغيرة . صحيح نسيت أن أسألك هل تشعر بتحسن ؟ أم أن الألم ما زال يزعجك؟

ضحك بإحراج ، وأجاب : بصراحة أنت تتكلم بسرعة وبالكاد حفظت الجملة الأخيرة ، أجل أشعر بتحسن شكرا لك . الألم أقل بكثير من الأيام الأولى.

-هذا جيد.

قالها بعد تنهيدة اطمئنان عميقة.

اقترب من الطاولة الصغيرة الموضوعة بجوار السرير ليضع عليها باقة الزهور ، فلمح صورة لفتاة صغيرة ذات شعر فضّي . تردد قليلا قبل أن يسأل وهو يحمل الصورة : هل ... هذه أختك؟

أجابه بنبرة حزن فشل في إخفائها : أجل ... إنها جميلة أليس كذلك؟ الشعر المائل للبياض يلائمها أكثر مني.

قال بنبرة طغت عليها الجديّة : "ستيف" هل تثق بي؟

-بكل تأكيد.

نظر إلى عينيه وقال : هل الذي يدخل سن الثلاثين يمكن أن يصاب بالزهايمر؟

استغرب "ستيف" من هذا السؤال غير المتوقع وأجاب : لا أظن ذلك ، لماذا؟

هزّ كتفيه وأجاب : لأني لا أعرف هذه الفتاة ، هذه أول مرة أراها بها وصدقني أنا أتذكر وجوه قتلاي جيداً . خيالاتهم وهي تلاحقني في المنام لم تتلاشَ بعد العفو الذي حظيت به لمصلحة الشرطة . الأمر فقط أنني لا أنساهم وصدقني هذه الفتاة ليست ضمنهم.

-أتـ ... أتـ ... أتعني أنكَ ... لست أنت من قتلها؟

ضربه على رأسه وقال متصنعاً الغضب : العتب عليك أيها الأبله أين كانت عيناك في ذلك اليوم ؟ ألم تستطع النظر لوجه القاتل يا غبي؟

-لكن ... لكن ... إن لم تكن أنت فمن هو؟

لم يطل صمته ليجيب بثقة : لنقل أنني أعرفه ، روبنسون حقنة الهذيان! هذا يسمونه . تعافى بسرعة يا شريك كي نجد قاتل شقيقتك.

لم يستطع تمالك نفسه فأجهش بالبكاء : طوال ثلاث سنوات كنت أظنه أنت ... لكن لست من قتلها.

أغمض عينيه لتسقط دمعة منه هو الآخر : إن لم أسلب منك أختك فهذا يعني أني سلبت أخت غيرك في ذلك اليوم . الندم لن يفارقني.

-إلا أن ندمك معي كان فقط ... ندماً مبكراً !

نفسي الضائعة

جلست تحدق بتلك النافذة بصمت . لم يكن هناك ما يجذب الاهتمام . لم يظهر من تلك النافذة سوى جدار ضخم كان يحيط بالبناء الذي يتجنبه الكثيرون.

هو مصح عقلي ، مشفى الأمراض العقلية ، مستشفى المجانين . سموه كما شئتم ، فهذا لن يغير من وصف الأشخاص الذين يعيشون فيه دون إدراك لما يجري لهم أو حولهم ، ولن يفعلوا يوما.

نظرت "ياسمين" إلى ذلك الفراغ المجرد من الجدار، وهي تمسك دفترها الأبيض بين ذراعيها الصغيرتين السمراوتين.

فجأة ، بدأت تلتفت يمنة ويسرة كمن يبحث عن شيء في غاية الأهمية.

ارتسم انفعال واضح على ملامح وجهها الهادئ عندما بدا أنها لم تعثر عليه.

-هل تبحثين عن هذا يا صغيرتي؟

انشقت ابتسامة جميلة على محياها ، وهي تلتقط القلم الذي بيد السيد "عماد" رئيس هذا المكان.

-يبدو أنه سقط تحت سريركِ دون أن تنتبهي.

قالها باسما ، وهو يحملق بعطف نحو هذه الطفلة الصغيرة.

لنتحدث قليلا عن السيد "عماد" :

هو رئيس المصح العقلي كما أسلفنا ، رجل تجاوز الخمسين من عمره على الأرجح.

غير متزوج ، لذا فهو يقضي معظم يومه هنا ، وتحديدا في غرفة صغيرتنا "ياسمين".

له ملامح ودودة ، كسا الشيب معظم رأسه ولحيته الخفيفة مما زاد من ود ملامحه ولطف ابتسامته.

لم تنطق بأي حرف ، بل ربما لم تسمع حتى ما قاله ، فما إن أمسكت القلم حتى شرعت تكتب بدفترها الأبيض.

اقترب منها بضع خطوات ليصبح خلفها تقريبا ، وألقى من فوق كتفها نظرة فاحصة على ما تخطه.

مجرد كلمات بلا هدف . بدت جميلة لكنها كلها كانت تحت عنون "بلا عنوان".

توقف القلم عن الكتابة ، قلبت الدفتر على الصفحات الأخيرة لتكتب

"هل ستزورني أمي اليوم؟"

قرأ السيد "عماد" لترتسم ملامح الشفقة على وجهه مجيبا : نعم يا صغيرتي ، ستأتي لزيارتكِ اليوم.

رسمت طيف ابتسامة زينت بها وجهها الأسمر.

"أتشوق لزيارتها"

مرت خمس ساعات ، وها هو وقت الظهيرة قد انتهى ، والعصر نشر أجنحته على بلاط الدنيا معلنا وقت الزيارة.

بدأت "ياسمين" تسمع أصواتا من خلف بابها المغلق.

بدأ الناس يزورون أحباءهم الذين فتك بعقلهم الجنون ، وليعطوا المال للمستشفى.

الأمل ،،، ثم الأمل بأن ينفتح ذلك الباب الذي ظلت "ياسمين" تحدق به لتدخل والدتها التي تزورها كل ثلاثة أشهر.

انفتح أخيرا وأطل من ورائه شخص لم يكن من توقعته.

قال السيد "عماد" الذي لم يكن يريد نقل هكذا خبر لصغيرته المفضلة بحزن : عزيزتي ، لا أعرف طريقة أخرى لقول هذا لكن ... أمك لن تستطيع المجيء لسبب ما.

في الواقع ، الأمر لم يكن "لسبب ما" بل السيد "عماد" كان يعرفه ... كان يعرف السبب جيدا.

يعرف أن تلك الوالدة بدأت تمحو من ذاكرتها ابنة رمتها هنا وغادرت.

حقيقة الأمر أنها انتقلت لمدينة أخرى ما إن دخلت "ياسمين" المصح قبل أربع سنوات.

انتبه السيد "عماد" على الورقة التي مدتها له "ياسمين" ليقرأها.

جال بباله أمر يفكر به دوما ، فهو لم يسمع يوما صوت صغيرته ... أبدا.

بدأ يقرأ رسالتها بفضول

"ربما هي لا تملك المال يا سيدي.

ربما هي تريد أن تأتي لي بشدة لكنها لا تملك المال"

قلنا أنه يعرف السبب الحقيقي ، لكن تحطيم هذه الفتاة كان آخر شيء يمكن أن يفعله ولو كلفه حياته ، لذا فقد قرر مسايرتها بالأمر علّ أملها هذا سيخلق طريقا لوالدتها لتأتي إلى هنا.

-أظن ذلك يا صغيرتي ... أظن ذلك ، لكن ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا الأمر؟

شيء ما ،،، شيء جهله جعلها تبتسم تلك الابتسامة التي أسرت قلبه وهي تكتب

"أستطيع أن أبيع كتاباتي وأرسل المال لها وبه تستطيع أن تأتي متى تشاء. قلت لي مرة أن ما أكتبه جميل"

قال بسعادة بالغة لهذه الفكرة : هو كذلك يا عزيزتي ... هو كذلك ، فكتاباتك فعلا جميلة.

فكر قليلا في نفسه ، فربما سيقنعها هذا ويحرك مشاعر الأمومة بداخلها بعد رؤية اهتمام ابنتها بها وتأتي.

-إذا أردتِ فسآخذها أنا وأساعدكِ بنشرها علها تفعل ما يساعد والدتك.

أومأت برأسها سعيدة.

قد تتساءلون عن سبب وجود فتاة مثل "ياسمين" في مكان كهذا ، فالجنون شيء لا يبدُ عليها.

في مساء ذلك اليوم ،،، صراخ ... صراخ قوي جدا قد يفزع من يسمعه لأول مرة ، لكنه صار معتادا هنا.

ما إن تفتح عينيها ليلا وترى نفسها وحيدة حتى تبدأ بالصراخ غير المنتهي.

لا يفيدها شيء ، ولا يسكتها أحد ... لا أحد يستطيع غير السيد "عماد".

ذلك الرجل الذي بمجرد أن تراه "ياسمين" يتسلل الهدوء لقلبها وتأخذها السكينة في أحضانها.

فُتح ذلك الباب بسرعة

-أنا هنا يا صغيرتي العزيزة ... كفي عن الصراخ ونامي بارتياح . لن يأتِ أحد لهنا وينغص لكِ ليلتكِ.

هدوء تام عمّ غرفتها . ذلك الرجل الرائع يكون بجانبها دوما وفي أي وقت تريده ، بل لنكن صريحين ، هو يقضي جلّ وقته في المصح لكي يكون قريبا منها عندما تمر بهكذا حالة.

في صباح اليوم التالي

-سأذهب الآن لذا عليكِ أن تكوني فتاة مطيعة ولا تسببي متاعب لأحد أثناء غيابي . لن أتأخر.

غادر بعدها لمركز المدينة غير البعيد عن المصح آخذا معه أوراقا تحمل ما كتبته "ياسمين" طوال فترة بقائها في ذلك المكان.

في عصر يوم في الأسبوع التالي

حاملا بيده ظرفا أبيضَ ، دخل غرفتها . لم يكن عليه أن يتعب نفسه بالتساؤل عن الوجهة التي يوجه لها بصره ليراها ، فهي لا تغادر سريرها أبدا.

نظرت نحو الباب بتشوق عندما رأته يّفتح.

-مساء الخير عزيزتي . عندي لكِ خبر سار جدا.

كتبت له بسرعة وناولته الورقة

"هل هو شيء يتعلق بالكتابات؟"

-أجل هو كذلك.

قالها وهو يقترب من سريرها مادا لها الظرف الذي في يده.

تناولته منه ، بعد أن قال باسما : افتحيه.

فتحته بيد مرتجفة لترى مبلغا من المال ، من نظرة واحدة ودون حساب عرفت أنه كافٍ جدا لتشتري به أمها التذكرة ، وتأتي.

أبعدت نظرها عما في يدها لتنظر إليه ، فهي قد تساءلت في نفسها ، كيف سترسل النقود!

أظن أنه فهم ما فكرت به فقال أنه هو من سيفعل ذلك حتما.

كانت تنتظر اليوم التالي بفارغ الصبر . كانت متعجلة لا تريد لأمها أن تتأخر.

يوم ،،، يومين ،،، ثلاثة أيام ،،، ولا أثر لتلك الوالدة.

دخل عليها السيد "عماد" ليراها منتكسة ، حزينة ، وكئيبة جدا.

جذب نظره شيء غير اعتيادي بالنسبة له ، وهو أنها لا تمسك قلمها ، ولا تكتب كما كانت عادتها.

-صغيرتي لماذا لا تكتبين؟

ربما ،،، فقط ربما كان هذا السؤال شيئا لم ترغبه "ياسمين" بتاتا.

ضربت دفترها بقوة لتوقعه أرضا وتتمزق بعضا من أوراقه وتتناثر هنا وهناك.

صراخ عالٍ وبكاء شديد . لم تستطع أن تتحمل أكثر من ذلك.

هي لا تملك غير والدتها ، وها هي ذي قد تخلت عنها.

ماذا ستفعل الآن؟ لقد صارت فعلا "مجنونة وحيدة".

لكن ما أثار إحساس السيد "عماد" وحطم جمال نهاره هو تلك الدموع التي لم يرها يوما.

أجل ... لم يرها يوما.

أدار ظهره لصغيرته ، وغادر غرفتها بسرعة بعد أن هدأها قائلا بانفعال : سأحضرها.

ذهب إلى محطة المترو حتى لا يأخذ وقتا أطول بإحضارها.

فكر في نفسه ، ما هذا القلب القاسي!

ما هذه المشاعر التي تملكها!

إنها أم ،،، لها بنت تحتاجها ، فكيف لها أن تتركها وهي لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها!

كان يحفظ عنوان بيتها عن ظهر قلب إذ أن هذا شيء طبيعي بالنسبة لأولياء أمور من في "ذلك المكان".

وقف أمام باب بيتها وطرقه دون تردد.

فتحته والدة "ياسمين" لترتسم علامات التعجب على وجهها إذ ما الذي قد يفعله السيد "عماد" هنا؟

-هل هناك خطب يا سيد "عماد"؟

-مساء الخير سيدتي . أتيت إلى هنا لأستفسر عن السبب الذي دفعكِ لرفض المجيء لزيارة ابنتكِ رغم أنها فعلت لأجلكِ ما فعلته لترسل المال ظناً منها أنكِ لا تملكينه . لماذا لم تأتِ لزيارتها؟

أطلقت تنهيدة قوية ، وأجابت باختصار شديد : لقد صارت لدي عائلة يا سيد "عماد" . عائلة أخرى لا أستطيع أن أدخل فتاة مجنونة لها . لا أحد هنا يريدها ، وأيضا ... ما الذي قد تدركه مجنونة مثلها؟ سواء زرتها أو نسيتني ونسيتها ، ما الذي سيتغير؟ لا شيء.

-عذرا سيدتي ، لكني سأطلب منكِ زيارتها اليوم ، ولو لآخر مرة . من فضلكِ . إنها تحتاجكِ وبشدة . اليوم بكت بمرارة لأنها لم تركِ . أرجوك تعالي لزيارتها.

بعد تفكير للحظات : لآخر مرة؟

-لآخر مرة.

بالكاد استطاع إقناعها أخيرا.

بعد ثلاث ساعات

كان السيد "عماد" يشعر بفرحة غامرة ، إذ أن "ياسمين" ستكون سعيدة جدا برؤية والدتها بعد انتظار طويل الأمد.

حرّك مقبض الباب بهدوء ليفتحه متطلعا إلى السرير الذي يراها تجلس عليه دائما.

لكن ... ذلك السرير كان خاليا.

لم يكن هناك أحد في تلك الغرفة.

التوتر سيطر عليه ، وملامح القلق نُحِتت على نظراته.

وقف في منتصف الغرفة ، وبدأ يناديها بصوت مرتفع :
"ياسمين" ... صغيرتي أين أنتِ؟

أين يمكن أن تكون؟ ليس في الغرفة مكان يمكن أن تذهب إليه.

خطوات مسرعة تهرع بصعود الدرج والتوجه نحو السيد "عماد".

-سيدي ... إنها ،،، "ياسمين" إنها ...

استدار نحوه بارتباك ، بينما الوالدة صامتة منذ مجيئها : ما بها؟ أين هي؟ هل حصل لها شيء؟

-سـ ... سيدي ،،، لقد انتحرت . رمت بنفسها من نافذة غرفتها ، وانتحرت . وجدناها مرمية على الأرض قبل قليل.

لا رد ... لا جواب ... لا يستطيع أن يقول شيئا ، بل جرى مسرعا نحو النافذة وعينيه تتلألآن من دموع لم يعتد على ذرفها.

ذلك الجسد الصغير ملقىً على الأرض ، ودماء تسيل من رأسها لتصطبغ به الأرضية حولها ، والممرضون بقربها مع حمالتهم ، ينتظرون من السيد "عماد" أن يطلب منهم حملها.

كان يريد أن يقول شيئا ، لكن صوته كُبِت في حنجرته ، وهو ينظر بحسرة وألم نحو سريرها الخالي.

إنها صدمة ، وشيء لا يستطيع تصديقه أبدا.

لم يدخل عقله ما قد حصل.

هناك ،،، رأى ذلك الدفتر الذي لطالما أحبّ الإطلاع على ما فيه.

سار بخطى متثاقلة نحوه ، أمسكه ، وبدأ بقراءة الصفحة التي كان الدفتر مفتوحا عليها.

"اليوم اكتشفت شيئا ... منذ مجيئي إلى هنا كنت تائهة . كانت نفسي ضائعة لا تعرف الطريق إلى الخلاص.

لم أجد لها سبيلا لأوصلها إلى المكان الذي تريد.

أمي ... كانت الإنسانة التي برؤيتها أعرف الطريق.

لا ،،، هذا ما كنت أظنه قبلا.

بل هو شخص كان معي طوال وقت حاجتي لأحد . السيد "عماد" كان منذ البداية منقذي من ذلك الضياع.

في كل يوم كنت أصرخ ليلا بسبب الوحدة ، وهو الوحيد الذي كان يمكنه أن يهدئني.

أنا أحب السيد "عماد" ،،، أحبك يا ... أبي.

كنت أنت أبي وستظل ، فأنا معك أشعر بأني ابنة يرغب بها أحد.

شكرا لك ، فأنت كنت المأوى الآمن لنفسي التي لم تجد مأواها قبلا.

أرغب أن أقول لوالدتي ،،، لستِ مضطرة لزيارتي بعد الآن فهذا الأمر ثقيل عليكِ ... أعرف هذا."

أدارت ظهرها لتلك الغرفة الخالية إلا من السيد "عماد" قائلة بحزن ناقص : أنا ذاهبة . لم يعد لدي هنا من أفكر بزيارته.

-لقد رحلت . لكن لماذا؟ إن كنت والدها في نظرها ، فلماذا تركتني ورحلت ، وهي أكثر من أحببته كعائلة هنا؟ لماذا؟

"خلف الكواليس المخفية"

كانت تكتب ما عرفته عن "والدها" ، وما اكتشفته.

فحوّلت نظرها نحو النافذة المفتوحة التي أدخلت لها نسيم الصباح الهادئ ، لترى فراشة صفراء اللون تطير بعشوائية قرب النافذة.

كان هذا شيئا جذب اهتمامها كثيرا ، إذ لم يسبق لها أن حدقت هكذا بفراشة جميلة كهذه.

نهضت من سريرها ، وسارت بحذر نحو نافذتها ، مادةً يدها للفراشة ، بوجه باسمٍ سعيد يزينه شيء من الفضول البريء.

كان شيئا عاديا ، أن تبتعد تلك الفراشة خوفا من يد قد تأسر لها حريتها.

استندت على حافة النافذة ، وبدأت تخرج جسدها أكثر ، وأكثر لتصل للجمال الذي أقبل لها.

ثم فجأة ،،، سقوط.

وظلام ليس بعده أي ضياء.

يوم غيّر مجراي

حين عادت إلى منزلها مسرعة لتدوّن الموقف الذي رأته أمامها قبل قليل ، تذكرت أنها –حين استيقظت صباحاً – لم تتخيل اختلاف اليوم هذا عن سابقه .

لا نعني أنه وجب أن يكون مملاً بل بالعكس ، ذهابها إلى المركز الصحي القريب من بيتها -لتقضي فترة تطبيقها المؤقت عقب التخرج – كان تجربة ممتعة جداً .

ما حصل يومها زاد الأمر متعة .

-إنها فترة استراحة الظهيرة يا دكتورة .

رفعت المعنية نظرها لساعة الحائط مبعدة تلك النظارة الطبية لتسبين الوقت ، فاجأها أنه مرّ مسرعاً هكذا ، كانت تشير للثانية عشر ظهراً ، إنها بالفعل فترة الاستراحة .

-هذا صحيح ، إذن فلتخرجي وترتاحي يا مروة .

أخرجت تفاحتها من الحقيبة وعلبة العصير الباردة من ثلاجة العيادة الصغيرة ، خارجة لتجلس على مقاعد المراجعين .

كانت تحب الجلوس هناك متى ما سنحت لها الفرصة إذ باستطاعتها أن ترى المركز الصحي بأكمله تقريباً ، أمامها شباك تذاكر العلاجات وعلى الجانبين منه ممران فيهما المزيد من الغرف الخاصة بالمركز ، وعلى يسارها حين تجلس باب يقود للخارج فترى منه كل من يأتي ويرحل .

ضوضاء الناس ورؤية كل الأشكال والأعمار ، الأطفال الذين يحدقون بها بغرابة أو لنقل بدهشة وهم يرونها بصدريتها البيضاء كانوا يبهجونها .

تمتمت قائلة بعد زفير قوي : هل يمكن أن تأتي الأيام بأجمل من هذا !

ولمَ لا ؟ لا يمكن للمرء أن يتوقع ما قد يحصل له ، ما إذا كان سيأتي الأفضل أم العكس .

ما إذا كانت التفاحة سوف تؤكل كما في كل يوم أم تبقى تحتضنها الأصابع لسبب ما . لا يمكن للمرء أن يتوقع .

وقفت امرأة أربعينية أمام شباك التذاكر تسأل الموظف عن الموعد القادم مع طبيب الباطنية ، خلفها كانت تجلس فتاة عشرينية بيضاء الوجه وزادها حجابها الأسود بياضاً على كرسي متحرك تنتظر المرأة –التي ربما تكون والدتها- لتنهي حديثها وتغادران .

-لقد شردت قليلاً ولم أنتبه لقدومهما ، فضولية أنا أجل ، لكن أنجذب لكل شيء .

كانت هذه تمتمة أخرى لم يسمعها أحد .

أنهت المرأة حديثها وانطلقت بخطى مائلة للسرعة نحو باب الخروج بعد أن قالت : هيا لنعود . مخاطبة الفتاة الشابة .

هيا لنعود ؟ في مواقف كهذه ترى مروة –بل وأغلبنا – أن الشخص الذي يمثل المرأة سيدفع الكرسي ليساعد الشابة لا أن يقول : هيا لنعود . وينطلق دون أن يلتفت ليرى هل بدأ المعني بالتحرك أم لا .

كانت عبارة عادية بشكل غير عادي ، وموقفاً غريباً في ظرفٍ غير عادي أو ربما هو عادي لكننا من يبالغ باستضعافهم واستضعاف ما يمكنهم فعله إذ كم سيكون صعبا مثلاً تحريك الكرسي ودفعه للأمام !

ليس بصعوبة تذكر وهو شيء واضح من حركة يديها على العجلات لدفعها .

تابعت مروة المسار وسبقت الكرسي ببصرها للباب فشدّها ذلك العارض الحديدي الذي لا يعلو عن الإصبعين موضوع كإطار للباب يجعله بعيداً عن الأرض .

-كيف ستعبر هذا العارض وحدها ؟ أظن أن أمها ستلتفت وتعود لتساعدها .

الأم التفتت أجل لكن ليس لهذا ، رأتها ما تزال بعيدة فقالت بحنان : هيا أسرعي .

توقفت أمام العارض لثوانٍ قليلاً ، وأفطن أنها كانت فقط تحسب كم يلزمها من القوة لتدفع العجلات دفعة كافية حتى تصعد وتخرج .

وضعت يديها على العجلتين الكبيرتين ، أرجعتهما للوراء قليلاً ثم دفعة قوية لتعبر العارض وتغادر مع والدتها عائدتين إلى البيت .

تكتب مروة في مذكرتها التي تدوّن بها أحداث الأيام المميزة :

"شعرت بأني ساذجة ومتملكة لشيء من القوة والتعالي الذين كانا في غير موضعهما .

لقد ظننت أن الفتاة أضعف من أن تسير وحدها دون أن يدفعها أحد .. أضعف من أن ترى أمها تسبقها الخطى وتناديها لتأتي .

أظن أنني لو كنت مكانها لانفجرت باكية منتظرة شفقة أمي لتدفعني وشفقة من ينظرون إلي قائلين : يا لها من فتاة مسكينة .

والآن أتساءل لماذا قد يقال "مسكينة" ؟ لماذا شعرت بأنها ضعيفة ؟ أ لأني أملك أقداماً أرفعها براحة من على ذلك العارض لعبوره بسهولة ؟ أوه ، أكاد أجزم أنها عبرته بنفس السهولة التي أتصورها لنفسي .

وتلك الأم ، شعرت بصفعتها على خدي .. كأنها تقول بكل ثقة : هذه ابنتي .

وكأنها حين تلفت لها لا تفعل ذلك لتطمئن عليها بل لتخاطبها قائلة : هيا يا عزيزتي ، أنتِ قوية بذاتكِ وتستطيعين السير وحدكِ أينما تريدين ،، ليست الأقدام هي ما تحدد قوة المرء من ضعفه .. لا ليست هي .

لا ينقصكِ شيء وها أنتِ وحدكِ تدخلين وتخرجين وتتحركين وأنا بجوارك أعيش لحظتي كمن يسير مع قرينه المماثل له .

ربيتكِ هكذا وستربينهم هكذا حتى لا يروكِ بعين مشفقة .

هذه ابنتي .. وانتهى ! "

بتاريخ 2016 / 3 / يوم غير مجراي

-النهاية -

بوادر قلم

تصميم:يقين الوائلي